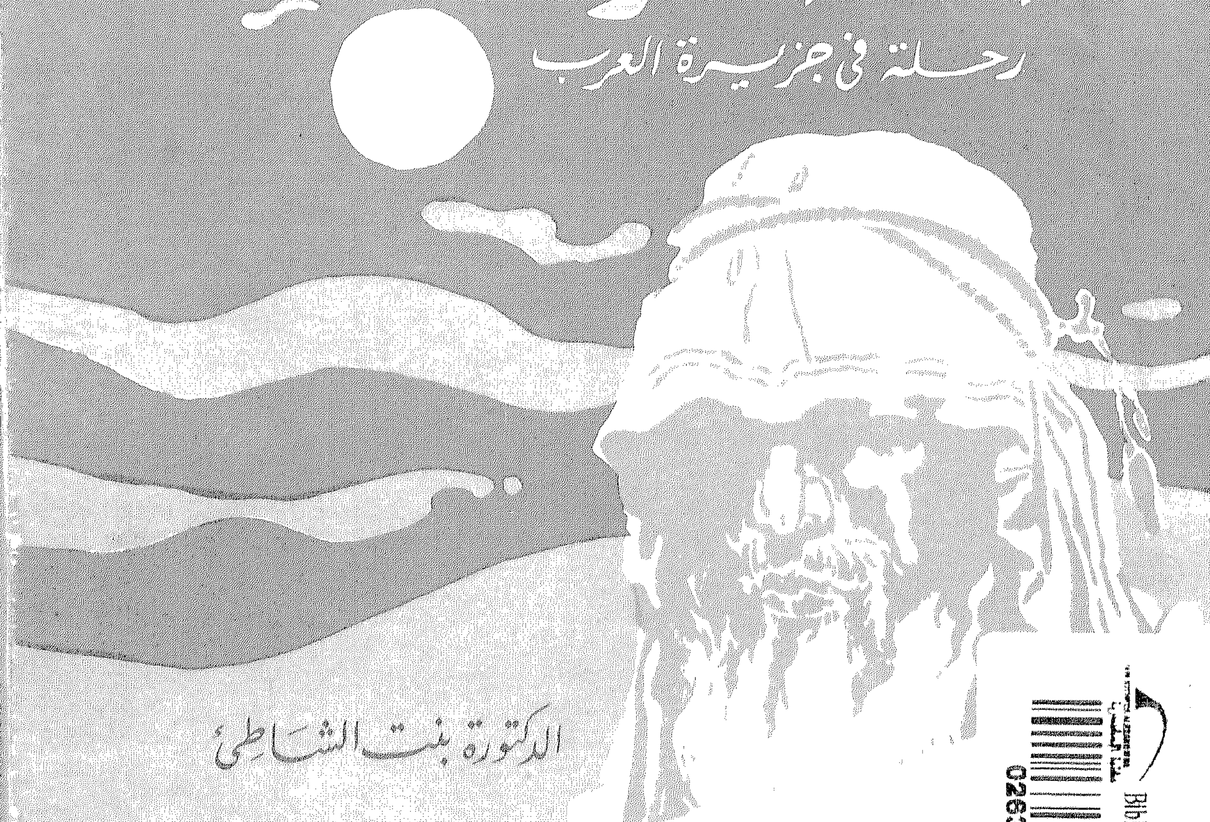
أرض المعجزات

رحلة في جزيرة العرب



الدكتورة بنت الشاطئ

دار المعارف

أرض المعجزات
ولقاء مع التاريخ

أرض المعجزات

ولقاء مع التاريخ

تأليف

الدكتورة عائشة عبد الرحمن

(بنت الشاطئ)

أستاذ الدراسات القرآنية بجامعة القرويين

(المغرب)

الطبعة الثالثة

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

دعاء :

« رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ » .

[سورة إبراهيم]

« رَبَّنَا وابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

صدق الله العظيم

[سورة البقرة]

الإهـــداء

هذه طبعة جديدة من أرض المعجزات ، أكتبها بعد عشرين سنة من رحلتى الأولى إليها ، فتكشف لى الرؤية البعيدة عن آفاق خفيَتْ علىَّ وأنا فى أخذة اللقاء الأول بالأرض المباركة التى شاء الله لها أن تكتب تاريخاً جديداً للدنيا ، وأن تتجلى فيها من آياته تعالى :

● **آية البيان** ، فى هذه اللغة العربية التى نشأت فى رحاب البادية من ليل الجاهلية ، لتفرض حيويتها على الزمن ، وتشرفُ بنزول القرآن الكريم بها ، فتغدو لسان أمتنا المعبر عن جوهر إنسانيتها الناطقة .

● **وآية الفجر الصادق** ، الذى بزغ نوره فى ليلة القدر المباركة ، حين خرج المصطفى ﷺ من « غار حراء » مبعوثاً بختام رسالات الدين ، يتلو الكلمات الأولى من هذا القرآن : معجزة نبوة ، وكتاب شريعة ، ولواء عقيدة وجهت التاريخ وحررت الإنسان ، والنور الذى حدا مسرى البشرية الأمية من ليل الجاهلية ، وقاد مسعاها إلى آفاق المثل العليا للحق والخير والجمال .

● ثم كانت **آية العلم** ، كشفت عن السر الذى أجَنَّته الصحراء آماداً وحقباً ، وبثت الحياة فى الوادى الأجرد غير ذى الزرع ، فتدفق عطاء كنوز الصحراء ، منطلقاً إلى شتى الآفاق ، ومشاركاً فى موازين القُوى لعالَم اليوم . . .

هذه هى أرض المعجزات .

أسترجع فيها ذكريات رحلتى الأولى إليها من قبل عشرين عاماً ، وأضيف إليها عطاء رحلة لى جديدة ، فى موسم الحج من عامنا هذا ، كانت لقاء مع التاريخ العريق فى مهد النبوة وأرض المبعث ، اتصل فيه الحاضر المشهود بالماضى الحىّ ، فى رؤيا ملهَمة رقَّ فيها الحِس والوجدان ، وصفا القلب والضمير . .

فإلى هذه الأرض التى أعطتنا لغتَها لساناً معبراً عن جوهر إنسانيتنا الناطقة .
وإلى بقاعها المباركة التى كانت لنبينا المصطفى عليه الصلاة والسلام مهداً ومبعثاً ،
والتى تظل أبد الدهر قبلة أمتنا ومثابة حَجِّها ومَهوى أفئدتها ،
أُهدى هذا الكتاب ، تحية اعتزاز وولاء . .

عائشة عبد الرحمن

مصر الجديدة
١٣٩٢ : ١٩٧٢

دليل :

- ليل الجزيرة

« خلق الإنسان . علمه البيان »

- الفجر الصادق ،

« هُدًى للناس وبيِّناتٍ من الهدى والفرقان »

- وراء الأسوار

« علَّم الإنسانَ ما لم يعلم »

- لقاء مع التاريخ

« وأذِّنْ فى الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كلِّ ضامرٍ يأتين من كل فج عميق » .

(١)

رحلة إلى جزيرة العرب

١٣٧٠ هـ : ١٩٥١ م

- ليل الجزيرة
- الفجر الصادق
- وراء الأسوار
- صور من الجزيرة
  - – المغتربات
  - – جارة النبى
  - – هاجر
  - – آمنة

فى عطلة منتصف العام الجامعى ١٩٥١ م ١٣٧٠ هـ دعانا الشوق إلى أرض المبعث ، فأجمعنا أمرنا على أن نسعى إليها معتمرين زائرين .

وحرص كثير من الأساتذة والطلاب على الاشتراك فى الرحلة ، لكن المبلغ الذى حُدد لها – خمسة وأربعين جنيها – حال دون كثير منهم ، فلم يبق منا غير عشرة من كليات : الآداب والطب والزراعة والتجارة ، بجامعة القاهرة ، فيهم ثلاثة من الأساتذة .

ووُضع برنامج الرحلة فى حدود ما تسمح به ميزانيتها المتواضعة ، فلم نطمع فى أكثر من قضاء العمرة وزيارة مثوى الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام .

وكان بودِّنا – نحن الذين درسنا علوم العربية والإسلام – لو اتسع المجال فامتدت الرحلة إلى ربوع الجزيرة التى عشنا العمر كله ندرس لغتها ونشدو بأشعارها ونتمثل بواديها ودروبها ومنازلها ، ونصحب شعراءها ورُجّازها وصعاليكها ، من وراء القرون ذات العدد . . .

لكن قصور وسائلنا وزادنا ، أبقى هذه الأمنية بعيدة المنال . . حتى شاء الله فزار مصرَ « صاحب السمو الأمير فيصل » وتفضّل فوضع الرحلة تحت رعايته الكريمة ، بعد أن استقبل وفداً منا ، أستاذنا أمين الخولى ، والدكتور محمد عبد السلام العيادى ، والدكتور محمود المنجورى .

وأوفد سموه ، السيد فؤاد شاكر لتوديعنا بمطار القاهرة ، حين بدأنا منه رحلتنا صبح يوم الأحد ، الرابع من شهر فبراير .

حملتنا طائرة سعودية إلى جدة لنجد فى استقبالنا فوجاً من كرام الرسميين والعلماء والأدباء ، ولنعلم أننا ضيوف جلالة عاهل الجزيرة « الملك عبد العزيز آل سعود » – طيب الله ثراه –

فى أصيل يوم وصولنا ، سعينا إلى مكة محرمين ، فقضينا العمرة وصلينا العشاء فى المسجد الحرام ، ثم نزلنا فى دار الضيافة حيث أمضينا أمسية حافلة مع المكيين الكرام ، وفى الصبح زرنا معالم أمِّ القرى وطفنا بمشاهدها . ثم عدنا إلى جدة حيث دعينا إلى الغداء بالقصر الملكى فى ضيافة سمو الأمير الشاعر « عبد الله الفيصل » .

وطاب لنا مجلسه ، وطاب معه الحوار الخصب الحىّ فى قضايا الشعر العربى والفكر الإسلامى . وذكرنا به شعراءنا الأمراء : من امرئ القيس وعُلَية بنت المهدى وعبد الله بن

المعتز وأبى فراس الحمدانى ، إلى ولادة بنت المستكفى والمعتمد بن عباد . . هؤلاء الذين أثروا تراثنا الأدبى بعطاء شاعريتهم الملهمة ورؤى وجدانهم المرهف ، ولطَّفوا من وطأة إحساسنا بمهانة القولة الشائعة الذائعة : « الشعر تجارة العرب » .

* * *

قال سمو الأمير يودّعنا :

« أنتم فى داركم وبين أهليكم . لا نضع لكم برنامج الرحلة . بل حسبكم أن تختاروا لها ما شئتم ، وعلينا التنفيذ » .

من ثَمَّ ، رُفِعت الحدود التى كانت تقيد خُطانا فلا تأذن لنا بالتحرك فيما يجاوز منطقة : جدة ، والحرمين . .

وفى دار « السيد الشيخ محمد سرور الصبان » — رحمه الله — رسمنا برنامج رحلتنا فى حرية وغبطة : نطير إلى الظهران ، ومنها نوغل فى نجد والأحساء ، ونبلغ القطيف والبحرين ، ثم نتجه إلى الرياض فنحيى جلالة الملك العاهل ، ومن هناك نأخذ طريقنا الجوى إلى المدينة المنورة لنسعد بزيارة حبيبنا المصطفى عليه الصلاة والسلام . .

* * *

رحلتنا إلى الظهرام كانت حافلة مثيرة . وفيها أقمنا سبعة أيام نتجول فى المنطقة ونسمع قصة الزيت .

وقضينا يوماً فى جولة بحرية بالخليج العربى ، بقارب بخارى أعدته لنا إمارة الدمام ، وزودته بطيب الطعام والشراب ، ووسائل الراحة .

ويوماً فى « القطيف » على ساحل الخليج ، مع صحب كرام من الأعيان والشعراء .

وبقى من أسبوعنا هناك خمسة أيام لزيارة دور التعليم ، وآبار الزيت ومعامله ، وميناء الدمام . متنقلين خلال ذلك من غداء فى بستان السيد الوزير الشيخ عبد الله السليمان ، إلى عشاء فى قصر الإمارة ، ضيوفاً على سمو الأمير الشيخ عبد المحسن بن جلوى ، إلى حفلات سمر واستقبال فى دور كرام القوم بالدمام والظهران والخُبَر .

وسعدت بلقاء السيدة الكريمة حرم سمو الأمير عبد المحسن التى استقبلتنى لترحب فى شخصى بسيدات مصر أم الدنيا . وقد شدّتنى إليها بلطفها وإيناسها ، وجاذبية أصالتها البدوية ، وملاحتها النقية التى لم تشوهها الأصباغ والألوان ، وبساطتها الفطرية التى لم يفسدها زيف وتكلف .

وفى الرياض كان لقاؤنا بالعاهل الكبير ، جلالة الملك عبد العزيز . وفى مجلسه بالمربَّع ، لم يكن لجلالته حديث إلا عن محنة الأمة بعار إسرائيل ، وقد مَدَّ بصره إلى الأفق الشمالى يستوعب أبعاد النكبة فى رؤية ثاقبة . ويحس بحَدْس فراسته الملهَمة ، نذرَ الإعصار العتىِّ يوشك أن يوغل فى صميم وجودنا وينتهك أقدس حرماتنا . .

وتهدّج صوت العاهل الشيخ ، إذ يتساءل فى حيرة وأسًى :

متى تحتشد الأمة للجهاد ، عسى أن يبذل حياته وأبناءه فدية لشرف أمتنا ؟

وأراه لم يملك دمعه ، وهو يتمنى على الله تعالى ، لو أنه أعفاه بالموت من شهود الكارثة . ورحمه من وطأة المعاناة الباهظة لإصر التخاذل وذل العار .

ودعنا جلالة العاهل – رحمه الله – وفى النفس همٌّ وشجن ، لم يلطف منهما ما حظينا به من كرم الوفادة وأنس اللقاء ، كان لى معهما أن تلطف جلالته فدعانى « أميرة الصحراء » . .

حتى شددنا الرحال إلى المدينة المنورة ، فما حوَّمت طائرتنا فوق أرضها الطيبة ، حتى اشرأبت لها أرواحنا الظامئة وقلوبنا المشتاقة ، وانجابت عن أفقنا الظلال والغيوم ونحن نستقبل مثوى الحبيب ، ونطوف بالربوع العاطرة بأنفاسه ، ونسير حيث سارت خُطاه . .

* * *

وعدنا إلى مصر نحمل أجمل ذكرى لأطيب رحلة وأكرم ضيافة .

ومضت الأيام ومشاهد الجزيرة تتراءى لى على البعد والقرب ، فتغرينى بأن أحدّث قومى عن أرض المعجزات التى ينتمون إليها عقيدة ولساناً ، ويستقبلون المسجد الحرام فيها ، حيثما كانوا . .

وسلام عليها : داراً وأهلاً . .

ليل الجزيرة

وآية البيان

أَوْقِدْ فإن الليلَ ليلٌ قَرُّ
والريحُ ياغلامُ ريح صِرُّ
عَلَّ يرى نارَك من يَمُرُّ
إن جَلَبَتْ ضيفاً فأنت حُرُّ

حاتم الطائى

مرّت على صحاريها الحِقَبُ والدهور وهي قاحلة مجدبة ، رهيبة مرهوبة . يحوم حولها الخيال ثم يرتدّ عنها فزعاً مذعوراً ، لا يكاد يميز بين صفير الرياح فيها وعواء الوحوش وعزيف الجان .

وتتراءى الأشباح للسارين فيها بليلٍ ، فيجسمها الوهم لا يكاد يفرق فى الدجى بين كثبان الرمال وقطع الظلام ، وتلك الأشباح التى تسرح طليقة فى ليل الفلاة .

وربما تمثلت لهم الجن وقد تلبّست شخوصاً آدمية فى شياطين البشر ، أو فى وحوش الفلاة .

وإذ غاب عنهم تفسير ما يلقون فى ليل الصحراء من غريب الظواهر ومباغتات الأخطار ، ردُّوها إلى هذه الكائنات الخفية التى تترصد لهم بين كثبان الظلمة وسُودِ الصخور . وقد تخرج لهم من أحشاء الأرض فى صورة ثعبان أرقش أو حية رقطاء أو أرنب وحشى .

وامتلأت الجزيرة بأساطير تحكى ما يلقاه الضاربون فى نجد والدهناء والربع الخالى ، من أفاعيل الجن وألاعيب الغيلان ، فزادت من رهبة القفر الموحش ، يتّقيه السارون إلا أن تدفعهم ضرورات العيش إلى ركوب مخاطره وأهواله . حيث يتلمسون مواضع أقدامهم على حذر ، وهم يستعيذون من شر ، فيما يقول راجزهم :

قد استعذنا بعظيم الوادى
من شرّ مافيه من العَوادى

وكان من راكبى القفر شعراء ، حفظ ديوان الشعر الجاهلى لبعضهم مغامرات ومواقف مع الجن ، من اختراع الخيال أو من أضغاث الأحلام وتجسيم الوهم ، كقول شاعر منهم يصف جنًّا نزلوا به حين أوقد ناره فى ليل القفر :

أتوا نارى فقلتُ : منون ؟ قالوا سراةُ الجنِّ ، قلتُ عِموا ظلاما
وقلت : إلى الطعام ، فقال منهم زعيم : نحسدُ الإنسَ الطعاما
لقد فُضِّلتُم بالأكل عنا ولكنْ ذاك يُعْقِبُكم سقاما

وقال الشاعر الصعلوك « تأبط شرًّا »[١] يفاخر بمغامراته مع الجن :

أنا الذى نكح الغيلانَ فى بلَدٍ   ما طَلَّ فيه سِمَاكىٌّ ولا جادا

ومنهم من زعم أنه اتخذ له فى القفر مطايا من الجن ، مشخصة فى أرانب وحشية :

وكلَّ المطايا قد ركبنا فلم نجد   ألذَّ وأشهى من ركوب الأرانب

وكذلك زعموا أن الجن ناحت على قبرِ « حاتم الطائى[٢] » لِمَا كان فى حياته يوقد من نار القِرَى فى ليل الفلاة ، فيؤنس الضاربين فى مجاهلها ويجدون لديها ملاذاً وقرى ، وحفظوا له قوله لغلامه :

أَوْقِدْ فإن الليل ليلٌ قَرٌّ
والريحُ ياغلامُ ريحٌ صِرٌّ
عَلَّ يرى نارَك مَن يَمرٌّ
إن جَلَبَتْ ضَيفاً فأنت حُرٌّ

فيُروى عن « أبى عبيدة ، معمر بن المثنى[٣] » عن رجل من بنى طيئ ، قال :

[رأيت قبر حاتم الطائى بِبَقَّة ، – موضع بديار بنى طيئ – وإذا قُدورٌ عظيمة من أحجار مُكفأَت ناحيةَ القبر ، وهى التى كان حاتم يطعم فيها الناس . وعن يمين قبره أربع جُوارٍ من حجارة ، وعن يساره كذلك . ولهن شعورٌ منشورة كالنائحات عليه ، لم يُر مِثْلُ بياض أجسامهن وجمال وجوههن ؛ مَثّلتهن الجنُّ على قبره : فإذا هدأت العيون ارتفعت أصوات الجن بالنياحة عليه إلى طلوع الفجر ، فحينئذ يَسْكُنَّ . .

قال : وربما مَرَّ المارُّ فيراهن فيميل إليهن ، فإذا قاربهن رآهن أحجاراً] .

وليس هذا بعجيب من تصورات الخيال وتهاويل الرؤى ، وقد تسمع مثله فى مناطق من الغرب الحديث[٤] وقدْ راجت هذه الحكايات وأمثالها فى أنحاء الجزيرة ، فلم ينج من التأثر

---

(١) ثابت بن جابر ، انظره فى (الشعر والشعراء) لابن قتيبة ، و (المفضليات) للضبى .

(٢) حاتم بن عبد الله بن سعد الطائى ، الشاعر الجواد المشهور فى الجاهلية بالكرم والسخاء . انظره فى : (الشعر والشعراء) .

(٣) من أئمة علماء العربية فى القرن الثانى للهجرة انظره فى (نزهة الألبا) و (أخبار النحويين) .

(٤) أذكر أننى شهدت فى جبال النمسا العليا ، صخرة من عجيب نحت الطبيعة ، لا يشك الرائى من بعيد أنها جسم امرأة نائمة . وسمعت القوم هناك يحكون لى ، فى ليلة ساهرة لشهود القمر الصناعى ، أسطورة حب نسجها الخيال لهذه (الأميرة النائمة) .

بها شاعر شيخ كالنابغة الذبيانى ، وهو يعيش فى بلاط النعمان بن المنذر بإمارة الحيرة . كالذى قال فى شكواه من ذوى الضغن عليه ، فى قصيدته الرائية التى ذكر فيها قصة الحية « ذات الصفا » وما لقيت من عذر خليلٍ لها من الإنس[١] :

* * *

فى ذاكرة الزمن ، كانت تعيش مرويات عن حضارات الأقوام وممالك من العرب البائدة ، قص علينا القرآن الكريم من خبرهم ما هو موضع عبرة ، مثل :

● **عاد** : « إرم ذات العماد . التى لم يُخلق مثلُها فى البلاد » .

كان منزلهم بالأحقاف ، بعث الله فيهم أخاهم هودا رسولاً ونذيراً ، فكذبوه وعصوا واستكبروا فى الأرض بغير الحق . فأرسل عليهم الريح العقيم « تدمر كل شىء بأمر ربها فأصبحوا لا يُرى إلا مساكنُهم » .

● « **وثمود** الذين جابوا الصخر بالوادِ » دعاهم نبيهم صالح إلى عبادة الله فكذبوه ، « وأخذ الذين ظلموا الصيحةُ فأصبحوا فى ديارهم جاثمين كأنْ لم يَغْنَوا فيها »[٢] .

● **وسبأ** الذين كان لهم فى مسكنهم آية : « جنتان عن يمين وشمال » وقد ازدهرت الحضارة فى مملكة سبأ بالجنوب ، حتى غرتهم الدنيا وأفسدهم البطر والترف ، واجتاحهم سيل العَرِم وبُدِّلوا بجنتيهم « جنتين ذواتى أُكُلٍ خَمْطٍ وأثْلٍ وشىء من سِدْرٍ قليل »[٣] .

ونزلت قبائل فى نجران والجوف اليمنى وحضرموت وساحل عمان . ونزحت أخرى ، من عرب الجنوب القحطانية ، فى هجرات جماعية قديمة فاستقرت فى منازل عَمَرتها ، ومنها ما خالط قبائل من عرب الشمال كقبيلة كندة التى ظهرت على بنى أسد ، وجرهم التى نزلت بمكة وأصهر إليها إسماعيل ، جد العرب العدنانية .

ونزل بنو قيلةَ ، ولَدُ عمرو بن عامر : آخر ملوك سبأ ، فى شمال الحجاز فعمروا يثرب

---

(١) مطلع القصيدة :

ألا أبلغا ذبيان عنى رسالة ... فقد أصبحت عن منهج الحق جائره

انظرها فى (ديوانه) وفى (العقد الثمين) .

(٢) انظر الآيات فى عاد وثمود ، فى سور :
الفجر ، هود ، الأحقاف ، القمر ، الحاقة ، النمل ، الذاريات ، الأعراف ، فصلت ، إبراهيم ، النجم ، الحج .
وما بين الأقواس هنا ، هو من نص كلمات الذكر الحكيم .

(٣) انظر الآيات فى سورتى (سبأ ، والنمل) .

وهم الأوس والخزرج [١] .

ونزل إخوتهم « بنو جفنة بن غسان » بأرض الشام ، فأسسوا بها إمارتهم العربية على حدود الروم . كما نزل المناذرة بالحيرة ، وقامت إمارتهم على حدود الفرس .

وفى الوادى الأجرد ، بين جبال الحجاز الصخرية ، كانت « مكة » أم القرى العربية ، معبداً لله تعالى من قديم الحقب ، ثم آلت إلى مركز للعبادة الوثنية : دين القبائل العربية فى شتى أنحاء الجزيرة .

وقد طال عليها الليل ، ولم تستطع طقوس الوثنية على كثافتها وغلظها ، أن تحجب سَنَا البيت العتيق ، أقدم بيتٍ عُبِدَ فيه الله على الأرض ، ولا أن تغض من حرمته التى لم يَزِدْها كرُّ الغداة ومرُّ العشيّ إلا عراقة ورسوخاً .

كما لم يستطع الضجيج الصاخب فى مواسم الحج إلى مكة وملتقى القبائل فى أسواقها بعُكاظ والمِجنَّة وذى المجاز ، أن يطوى ذكريات التاريخ الدينى لأم القرى ، من يوم أن رفع « إبراهيم القواعدَ من البيت وإسماعيل » وطهَّراه للطائفين والعاكفين والرُّكَّع السجود .

وتتابعت الحقب والدهور ، وهذا البيت العتيق حَرَمٌ آمن ، ومثابة حج القبائل وموضع تقديسها . . .

* * *

وبقيت البِيدُ وراء هذه الأطراف المعمورة والمنازل الآهلة والحواضر من القرى ، فى عزلتها الرهيبة المرهوبة ، لا تجتازها القوافل فى رحلاتها للحج والتجارة ، إلا بحماية من العرب البدو سادة الصحراء ، ومع أدِلاء منهم خبراء بمجاهل الدروب وعمياء المسالك فى القفر الموحش .

وظل للصحراء سلطانُها المادى والمعنوى على الحضريين ، تفرض عليهم تفسيرها للظواهر والغوائل ، وتسيطر على تصوراتهم بخيالها الطلق ورؤيتها للكون والحياة ، وتشحن وجدانهم بما لديها من أسرار القفر .

وكما ردَّ الضاربون بالفلاة غوائل الطريق إلى ما جسَّمه الوهم من أفاعيل الغيلان ، شقّ عليهم وعلى الحضر فى القرى والإمارات ، تعليل الإلهام الشعرى وفراسة الكهان ودهاء السحرة ، فردُّوها إلى أصحاب من الجن يتصل الكاهن والساحر بها فى عالمها السفلى

(١) انظر تفصيل ذلك كله فى : كتاب (تاريخ مكة) للأزرقى وكتاب (وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى) للسمهودى .

الخفى ، وإلى توابع منها تأتى الشعراء من وادى عبقر ، فتلق إليهم عبقرىَّ النغم وروائع القصيد . قال راجزهم :

إني وإن كنتُ صغيرَ السِّنِّ
وكان فى العيْنِ نُبُوٌّ عنى
فإن شيطانى أمـيرُ الجنِّ
يذهب بى فى الشعر كلَّ فَنِّ

وقال الشاعر الخزرجى المخضرم « حسان بن ثابت » من شعر جاهليته بيثرب :

وَلى صاحبٌ من بنى الشَّيصبا نِ فطوراً أقول وطوراً هُوَهْ

* * *

وخلفوا رؤاهم وأحلامهم وهواجسهم فى وجدان الجزيرة ، ميراثاً يتلقاه خَلفٌ عن سلف ، وتراثاً يتناقله الرواة جيلا بعد جيل ، لم يُفلت من تأثيره شعراء إسلاميون من بدو وحضر ، وفيهم مولدون وُلِدُوا وعاشوا فى الأقطار التى فتحها الإسلام ، فى بيئات بعيدة أقصى البعد عن بوادى الجزيرة وفلواتها .

قال « ذو الرمة » الشاعر الإسلامى البدوى [(١)] :

ورملٍ لعَزْفِ الجنِّ فى عُقْداته هريرٌ كتضرابِ المغنين بالطبلِ

وقال « جرانُ العود النميرى » [(٢)] يصف إحدى لياليه :

حَمَلْنَ جران العود حتى وضَعْنَه بعلياء فى أرجائها الجنُّ تعزف
وقلن تمتعْ ليلةَ النأىِ هذه فإنك مرجوم غداً أو مُسَيَّفُ

وقال « أبو النجم » [(٣)] مرتجزاً :

إني وكلّ شاعر من البشرْ
شيطانُه أنثى وشيطانى ذكَرْ

وقد أضافت هذه الأجيال الإسلامية إلى تراث الشعر الجاهلى من شطحات خيالها وتصورات وهمها ، ما وصل إلى القرن الرابع الهجرى ، فجمع منه « المرزبانى » كتابه فى

(١) غيلان بن عقبة . ديوانه مطبوع فى (المثنى) ببغداد .
(٢) عامر بن الحارث النميرى . ديوانه مطبوع فى دار الكتب المصرية .
(٣) الفضل بن قدامة ، من أشهر الرجاز فى العصر الأموى . انظره فى : (الشعر والشعراء ، ومعجم الشعراء) .

(أشعار الجن)[١] .

وفى القرن الخامس الهجرى ، كان الشاعر الأندلسى « ابن شُهيد » فى أقصى المغرب ، يصوغ من رؤاه مباراة شعرية ملهمة بين تابعه وتوابع مقدَّمى الشعراء وزوابع مشهورى الكُتاب ، وقد أفحمهم جميعاً[٢] .

حين كان « أبو العلاء المعرى » فى محبسه بمعرة النعمان بالمشرق ، يملى فى (رسالة الغفران) ما تمثله من مشهد لقاء بشاعر من الجنّ المؤمنين ، وينطق على لسانه بقصيدتين مطولتين ، فيهما عجائب وغرائب مما رسب فى عقلية بيئته من تصوراتٍ لعالم الجن[٣] .

* * *

لكن بادية الجزيرة ، هى التى أعطت الأجيال من العرب ، كذلك ، سليقتها اللغوية النقية ، وبيانهَا الذى طوعته للتعبير عن وجدانها ورؤاها ومنطقها .

أعطتنا العربية الفصحى ، بعد أن صقَلَتْها على المدى الطويل بحسها المرهف ، فأوصلَتْها إلى أواخر الجاهلية : قد أهملت الحوشى والغريب والثقيل ، وما تنافر من حروف اللفظ أوكلمات الجملة . وهذَّبت صيَغها بالإعلال والإبدال والقَلب والإدغام والحذف ، واستقرت قواعد مطردة للتأنيث والتذكير ، وللإفراد والتثنية والجمع ، والتعريف والتنكير . وتصرفت فى المادة اللغوية لملاحظَ من فروق الدلالات ، وتصرفت فى الفعل لضبط زمن وقوع الحدث ، وتمييز المعلوم من المجهول . واستخدمت الضمائر وأسماء الإشارات والأسماء الموصولة وحروف المعانى ، ببالغ الدقة والإحكام . كما حكمت المعانى بصيغ المشتقات ونسق الألفاظ فى الجمل ، وسياق العبارة وعلامات الإعراب .

وتوسعت فى المجاز لتنمو وتلبى حاجات الحياة ، فنقلت الألفاظ من استعمالها الحسى إلى المعنوى ، وتطورت أساليبها من قديم ، فخرجت عن معانيها فى أصل الاستعمال اللغوى . إلى معان بيانية وأساليب بلاغية لملاحظ فنية جمالية . كالمعروف من خروج أساليب الخبر من دلالتها الأصلية الأولى إلى الدعاء والاسترحام والتفجع والشكوى . وخروج أساليب الأمر

---

(١) ذكره ابن النديم فى (الفهرست) فى مصنفات أبى عبد الله المرزبانى ، الخراسانى الأصل البغدادى المولد والوفاة (٢٩٧ – ٣٨٤ هـ) . وذكره كذلك أبو العلاء فى (رسالة الغفران) صفحة ٢٩١ طبع الذخائر .

(٢) انظر (التوابع والزوابع) لابن شهيد الأندلسى ، فى كتاب الذخيرة لابن بسام . ط جامعة القاهرة .

(٣) انظر المشهد فى لقاء ابن القارح بالشاعر الجنى أبى هدرش ، وقصيدتى أبى العلاء على لسانه ، فى (رسالة الغفران) ط الذخائر : دار المعارف القاهرة .

والنهى والاستفهام ، إلى الزجر والتعجب والتقرير والإلزام أو الجحد والإنكار ، والعدول بالتعبير عن أصل استعماله فى اللغة عن طريق الاستعارة أو المجاز أو الكناية والرمز.

ووصل إلينا الشعر الجاهلى بعد أن مر بمراحل طفولته التى غابت عنا ، مُحكَم الإيقاع متسق النغم سخى الإلهام . تمضى القصيدة منه حتى تجاوز أكثر من مائة بيت عداً ، دون خلل فى نسق النظم وضوابط الإيقاع.

وبلغت العربية من ذلك كله ، مستوى عالياً من دقة الدلالة وإحكام الصياغة ، استطاع معه العلماء فى عصر التدوين ، أن يستخلصوا من تراث الفصحى قواعد الصرف والنحو والاشتقاق والوضع ، وأحكام البلاغة وأساليب البيان وضوابط العروض.

وفى الجاهلية ، حددت العربية من قديم موقفها من الدخيل : لم ترفضه رفضاً باتًّا فى جهود وعناد ، ولم تطلقه دون قيد يغزوها ويمسخ أصالتها.

فبقدر ما توسعت فى الاشتقاق والمجاز ، ضيقت باب الأخذ من الألسنة التى خالطتها بطريقة أو بأخرى ، صوناً للسانها . فاستغنت إلى أقصى المدى بتطويع الألفاظ الفصحى لكى تؤدى معانى ما احتاجت إليه ، أو ما استملحته وانتخبته من الألفاظ الأعجمية . ولم تلجأ إلى استعارة الدخيل إلا عند الضرورة القصوى ، مع إخضاعه للصيغ العربية ، إما بإلحاقه بأقرب صيغ الفصحى إليه ، أو بتغيير طريقة نطقه ، إشعارا بتعريبه . وقد استطاع علماء العربية فى القرن الثانى للهجرة ، وما بعده ، أن يستخلصوا قواعد لمعرفة المعرَّب والدخيل ، تشهد بأن الأمر لم يُترك لفوضى العشوائية والارتجال ، بل خضع لنهج واضح التزمته العربية فيما تأخذ من الألسنة التى خالطتها[1].

ثم كان أن مارست العربية فى جاهليتها المعروفة لنا تاريخاً وتراثاً ، حركة تطور بالغة الأهمية ، إذ اتجهت إلى استصفاء لغة مشتركة ، شبه رسمية ، تلتقى بها القبائل على اختلاف لهجاتها ، فيما يجاوز النطاق المحدود للقبيلة . وقد اختيرت لغة قريش ، بحكم موضعها من أم القرى والبيت العتيق ، وبما أتيح لها على المدى الطويل من انتقاء مختار الألفاظ والصيغ من لغات القبائل العربية الوافدة عليها فى مواسم الحج الدورية التى كانت فى الوقت نفسه مواسم أدبية شعرية ، وأسواق تبادل لغوى وتجارى . قال « ابن فارس » فى كتابه (الصاحبى) فى فقه اللغة :

---

(١) انظر : المزهر فى علوم اللغة السيوطى . ومعه كتابى (لغتنا والحياة) : المعارف.

[كانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج ويتحاكمون إلى قريش فى دارهم . وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها ، إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى سلائقهم التى طبعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب] .

ونقل جلال الدين السيوطى فى كتابه (المزهر) قول الفارابى :

[كانت قريش أجود العرب انتقاءً للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق ، وأحسنها مسموعاً وإبانة عما فى النفس]

* * *

وتجلت آية الرحمن فى الإنسان علمه البيان ، فى لغة بدوية لقوم أميين ، ماتزال تبهر علماء اللغة العصريين ، بما كان لها فى جاهليتها الأمية من حس مرهف وذوق مصفى ونهج أصيل ، تسامى بها أرقى لغات العالم المتمدن ، فى دقة الدلالة وإحكام الصياغة واطراد قواعد التصرف ، وخصب المجاز وعلو البيان . .

فما آذن ليل الجاهلية بمغيب ، حتى كانت هذه اللغة الفصحى أهلا لشرف نزول المعجزة القرآنية بها . قادرة على أن تواجه أكبر حركة تحول لغوى عرفه التاريخ منذ كان ، بتعرب الشعوب التى دخلت فى الإسلام بعد الفتوح الكبرى . .

* * *

فلنتمهل لنجتلى نور الفجر الصادق الذى بلغت فيه آية البيان ذروة الإعجاز ، وبدأت به لغة العرب حياة رحبة الآفاق بعيدة الآماد ، متجددة الطاقة مباركة العطاء . .

الفَجْرُ الصادق

«هُدًى للناس وبيناتٍ من الهدى والفرقان»

« هو الذى بَعَثَ فى الأُميين رسولاً منهم يَتلو
عليهم آياتِه ويُزكِّيهمْ ويُعلِّمُهُم الكتابَ
والحِكمة ، وإنْ كانوا من قَبْلُ لَفِى ضلالٍ
مبين » .

[سورة الجمعة]   صدق الله العظيم

ذات ليلة من أخريات رمضان ، بعد ميلاد المسيح عليه السلام بستة قرون وعشر سنين ، لَفَّ أمَّ القرى صمتٌ لاغب مكدود ، لا يُسمع فيه سوى أنفاسِ الليل مختلطة بهمهمة صلوات وثنية ، كانت ماتزال تتسلل من البيت العتيق .

وقمر رمضان لم يبزغ بعد ، فليس على الأفق المعتم سوى ضوء شاحب نحيل ، من نجوم تحجبها عن مكة جبالُها الصخرية الشُّم .

ونامت الدنيا لا تلقى بالاً إلى « محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمى القرشى » إذ أوى إلى غارٍ هناك مستغرقاً فى تأملاته ، يلتمس فى العتمة الداجية شعاعاً من نور الحق وينشد فى خلوته قبساً من هدى ، وخواطره تحوم حول مقام إبراهيم فى البيت الذى آل مع الزمن ، إلى مثوى لأوثانٍ ممسوخة وأصنام شوهاء بلهاء .

والتاريخ مشغول عن هذا الأمى الهاشمى ، بأحداث جسام خارج الجزيرة ، مشدود البصر إلى نذر الانهيار فى عالم يريد أن ينقض . يتابع الجولات الأخيرة للصراع بين قطبى ذلك العالم القديم ، حيث كانت دولتا الفرس والرومان تخوضان حرباً طاحنة على مراكز القوى والنفوذ ، وإحدى الدولتين قد أعشت نار المجوسية بصرها وبصيرتها فما عاد يعنيها سوى أن تجعل من ساحة الشرق كله معبداً لتلك النار العقيم ، تصلاها شعوبه بالقسر والإكراه .

والأخرى قد أثخنتْها جراح الحرب وهدَّتْها أمراض الشيخوخة ، واستنزفت بقايا قوتها فتنةُ الصراع الطائفى بين القائلين بناسوتية السيد المسيح والقائلين بلاهوتيته ، فتهاوى النسر الرومانى على الأرض يجثم على صدور خلق الله ويكتم أنفاسهم ، ويتسلط على مستعمراتهم بالعسف والطغيان والاضطهاد ، فى محاولة تستبقى له من الهيبة ما يستر وهنه ، ويعوضه عن قواه المستنزفة ومجده الآفل .

وبين هؤلاء وهؤلاء ، فلول من عصابات يهود ، تتربص بهم جميعاً الدوائر لترث ملكهم ، وتجعل من الدنيا معبداً للوثن الأصفر ، يستأثر سدنتُه اليهود بمفاتيحه ، ويتولّى أحبارهم شرح طقوس عبادته ، بعد أن عقوا الموسوية وكفروا برسولها ، وكادوا للمسيحية وائتمروا بنبيها ، وحرفوا كلمات كتابهم عن مواضعها ، لتلبى ما تأصل فى خلقتهم من شر وخبث وجشع وأثرة ، وتستجيب لما فى طبيعتهم من قسوة وحقد وعداوة للبشر .

وغير بعيد من غار حراء الذى شُغِلت عنه الدنيا والتاريخ ، هجعت مكة تجتر ذكريات مجدها الغابر وقد طوته وثنية ضالة عمياء ، وتساورها من حين إلى حين رجفة من قلقِ الوعى ، لا تلبث أن تهمد تحت وطأة الكابوس الجاثم .

ونامت قريش ، لا تحسب حساباً لهذا الهاشمى المختلى فى غار حراء ، وقد أَلِفتْ أن تراه ينسحب إليه من ضجيج المجتمع المكىّ ، عازفاً عن تلك الأوثان التى يعبدها قومه لأنهم وجدوا آباءهم لها عابدين ، وماذا على القوم أنْ عزف « محمد بن عبد الله » عن أوثانهم ورفض أن يعبدها مع الله أو يعبد الله فيها ؟ ! كذلك فعل مثل محمد من الحنفاء ، ليس عددهم بالذى يدخل فى الحساب بزيادة أو نقصان ، فى زحام أفواج الحجيج من قبائل العرب جميعاً ، ينثالون إلى مكة من كل فج عميق ، ليطوفوا بأوثانهم فى الكعبة ويؤدوا طقوس عبادتها ، موسماً بعد موسم ، وجيلا من بعد جيل . .

* * *

وأوغل الليل قبل أن يطلع فجر هذه الليلة من رمضان ، وينشر نوره على القمم والسفوح ، والبطاح والقيعان والأودية . .

ومع نور الفجر البازغ من الليلة المباركة ، تجلى الوحى للمختلى فى الغار ، وألقى إليه كلمة الله : « اقرأ » .

وما كان محمد بقارئ ، وما كان يتلو من كتاب ولا يخطه بيمينه ، من قبل أن يتلقى آياتِ الوحى الأولى :

« اقرأ باسم ربِّك الذى خلق * خلق الإنسانَ من علَق . اقرأ وربُّك الأكرمُ . الذى علَّم بالقلم . علَّم الإنسانَ ما لم يعلم » .

وبدأ تاريخ جديد :

الرجل الذى سرى فى الليل إلى غار حراء على مألوفِ عادته منذ أنكر موضع الأصنام فى البيت الحرام ، وأيقن أن حياة الناس لا يمكن أن تمضى هكذا على سفَه وضلال . . خرج مع الفجر الصادق من الغار ، نبيًّا مبعوثاً بختام رسالات الله .

والكلمات الأولى التى تلقاها فى ليلة القدر هذه من وحى ربه ، كانت مستهلّ كتاب معجز ، وآية بشر رسول ، ولواء عقيدة وجهت التاريخ وحررت الإنسان ، وصنعت أمة وقادت حضارة .

* * *

من الغار خرج المصطفى ، والنور ملء قلبه ، والكلمات ملء مسمعه ، واتجهت به خطاه نحو داره فى جوار الحرم ، والكون من حوله ساج خاشع ، وعلى الأفق نور الفجر الصادق ينسخ ظلمات ليل طال ، ويوشح البيت العتيق بِسَناً وضاء ، يكشف عما تكدّس فى حرمه من أصنام ، فتبدو على حقيقتها العارية ، صماء بلهاء . وقد كان لها من ظلام الليل سِتر كثيف يخدع البصر والبصيرة . ويزيف الرؤية .

وتلا المصطفى كلمات ربه فى قومه الأميين الذين لم يعرف التاريخ لهم كتاباً قط من قبل المبعث . وإن عرف فيهم صلابة البداوة ونخوة الطبيعة التى لم تفسدها أمراض المدنية وآفات الترف .

ودعا إلى التوحيد ، جُفاةَ الوثنيين الذين بعدُ عهدُهم بالحنيفية ، وطال عليهم الأمد وهم عاكفون على أوثان وأصنام يخلقونها ويعبدون خالقهم فيها ، تجسيداً لما شق عليهم إدراكه من الجلال الأسنى والحق الخالص والكمال الأسمى والمثل الأعلى .

* * *

على نور الفجر الصادق ، عرف الأميون طريقهم وخرجوا من ظلمات الجاهلية ، فما مضى على المبعث عشرون عاماً حتى كان عرب الجزيرة كلهم قد نبذوا الأوثان وحطموا الأصنام ، وعبدوا الله وحده مخلصين له الدين حنفاء . .

ومن هَدْى القرآن تعلم الأميون الكتاب والحكمة ، فآمنوا بإله واحد أحد ، فرد صمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار . .

بعد أقل من نصف قرن ، من ليلة القدر المباركة ، كان هؤلاء الأميون الذين تعلموا الكتاب والحكمة ، يطفئون نار المجوسية ، ويبطلون سحرَ الكفرة الفجرة ، ويدكون صروح الطاغوت ، وينطلقون فى الآفاق من مشرق ومغرب ، يحملون إلى الدنيا عقيدة التوحيد المحض والتنزيه المطلق ، وينشرون فى العالم الكتابَ والحكمة . . ويُبَلغون البشرية رسالتهم التى ناط بها القرآن أمته ، فى آياته المحكمات :

« لا إكراه فى الدّين قد تبيَّن الرُّشْدُ من الغَىّ ، فمَنْ يَكفُرْ بالطاغوتِ ويؤمِنْ بالله فقد استمسك بالعُروةِ الوُثقَى لا انفصامَ لها ، والله سميع عَلِيمٌ » .

[البقرة : ٢٥٦]

« الذينَ إنْ مَكّنّاهم فى الأرض أقاموا الصلاةَ وآتوا الزكاة وأمَروا بالمعروف ونَهَوْا عن المنكَرِ ، ولله عاقبةُ الأمور » .

[الحج : ٤١]

« ولْتكُنْ منكم أمَّةٌ يَدْعون إلى الخيرِ ويأمرون بالمعروفِ وينهَون عن المنكرِ ، وأولئك همُ المفلحون » .

[آل عمران : ١٠٤]

« كنتم خيرَ أمَّةٍ أخرِجت للناسِ تأمرون بالمعروف وتَنهَون عن المنكرِ وتؤمنون باللهِ » .

[آل عمران : ١١٠]

« يأيها الناسُ إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لِتَعارَفُوا ، إن أكرمَكم عندَ اللهِ أتقاكم ، إن اللهَ عليم خبير » .

[الحجرات : ١٣]

« فأما الزبَدُ فيذهبُ جُفاءً وأما ما ينفع الناسَ فيمكثُ فى الأرضِ ، كذلك يضرِبُ اللهُ الأمثالَ » .

[الرعد : ١٧]

« وتلك الأمثالُ نضربُها للناسِ وما يَعقلها إلا العالِمونَ » .

[العنكبوت : ٤٣]

« إنما يخشى الله من عبادِه العُلَماء » .

[فاطر : ٢٨]

* * *

وبدأت أمة القرآن من القرن الثانى للهجرة ، الثامن للميلاد المسيحى ، تقود البشرية لتخرجها من ظلمات الجهالة والأمية ، وتحررها من عقدةالخصومة بين الدين والعلم ، بما منَّ الله به عليها من عزة التوحيد وكرامة العقل . فانطلق علماء الدولة الإسلامية فى عصر قيادتها للحضارة ، آمنين من إصر الكهنوتية مطمئنين إلى تأييد عقيدتهم للعلم وإكبارها العقل الذى هو من جوهر الإنسانية الناطقة ، إذا تعطَّل أو جمُد ، مُسِخ الإنسان وهبط إلى دونية البهَم العجماء :

« إن شرَّ الدواب عند الله الصمُّ البكْم الذين لا يعقلون » .

« لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل همْ أضلُّ ، أولئك هم الغافلون » .

وما ارتاب علماء الإسلام فى أن العلم فى عقيدتهم فريضة وعبادة وجهاد ، وهم ينظرون فى الظواهر الكونية بعقلية جديدة متحررة ، لاجتلاء عجيب السنن الكونية

المحكمة ، ويمارسون التجارب العلمية المعملية ، لتحقيق آية الله فيما سخَّر للإنسان : « ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً » فقدَّموا جديداً أصيلاً من العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية ، ودخلوا التاريخ العلمى رُوَّاداً لآفاق لم يستشرفها أحدٌ قبلهم ، فكانوا هم الذين أصَّلوا المنهج التجريبى الاستقرائى ، وأعطوا الإنسانية أوليَات الكتب العلمية فى الطبيعيات والرياضيات ، وقدموا معها مخترعاتهم من أجهزة التجربة المعملية والرصد الفلكى والخبرة الجغرافية والملاحية . وبفضلهم تم نقل العلوم إلى مجال البحث التجريبى الذى لم تعرفه الفلسفة اليونانية بمنهجها العقلى النظرى .

وكان رصيد خبرة العلماء المسلمين وتجربتهم وتراثهم العلمى ، قاعدة الأساس لعصر العلم الحديث الذى حقق تقدماً باهراً فى الغرب الأوربى ، انطلاقاً من عصر الإحياء (الرينسانس) الذى قام على تراث الحضارة الإسلامية وتزوّد بعطائها . .

* * *

شُرفت العربية بنزول القرآن بها ، كتاباً عربيًّا مبيناً : معجزة بشرٍ رسول ، يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق . ففرض إعجازه على العرب والفصحى لغتهم سليقة وفطرة ، والبيان طوع ألسنتهم .

وكُتبت حياة جديدة رحبة الآفاق ، لهذه العربية التى ظلت آباداً إلى ليلة القدر ، منعزلة فى بواديها وقراها ، محصورة فى نطاق أهلها العرب الأميين :

من القرآن الكريم ، تلقت العربية زاداً سخيًّا مباركاً من أساليب البيان المعجز ، ومدداً من الدلالات الإسلامية التى استحدثها القرآن لألفاظٍ من عصرها الجاهلى ، كالإيمان والكفر ، والهدى والضلال ، والبصر والعمى ، والساعة والقيامة والحساب ، والجنة والنار . . .

ثم كان التحول الفذّ ، الذى لم يعرف له التاريخ مثيلاً قط ، وهيهات أن يعرف مثله أبداً :

شعوب العالم القديم ، كانت قد خضعت على طول ألف عام ، للاستعمار الأجنبى . وقد حاول الغزاة من رومان وفرس ويونان ، أن يفرضوا عليها عقائدهم وألسنتهم وقومياتهم بالقسر والإكراه والإرهاب ، فواجهتها الشعوب بالتحدى والرفض ، بحيث ظلت على المدى الطويل ، عقائد أجنبى مستعمر ، ولغة دواوين وثقافة دخيل ، يرتهن بقاؤها بما يحميها من سلطة الحكم وجبروت الاحتلال :

من عجب أنها ماكادت تصغى إلى دعوة الإسلام من حَمَلته الفاتحين ، حتى استجابت له طواعية ، وحملت لواء دينها الجديد داعية إليه مجاهدة فى سبيله ، مشاركة فى حركة المد الكبير للفتوح الإسلامية ، حتى بلغت بها أقاصي المشرق والمغرب . ونبذت كل ماضيها لتبدأ تاريخها الإسلامى ، أمة واحدة .

وفى نصف قرن فحسب ، كانت هذه الشعوب قد هجرت ألسنتها الأولى ، واختارت لغة القرآن لساناً لها ، وهى التى عصيت الزمنَ الطويل على المستعمرين الأجانب ، فمضوا عنها لم يخلفوا من بعدهم لغة لاتينية أو فارسية أو رومانية !

وسارت العربية مع القرآن الكريم حيث سار ، فإذا تراث الجاهلية من قصائد البدو وأراجيز الرعاة وأحاديث الفتيان فى مسامر القرى ودروب الصحراء ، وموقف الشعراء فى المواسم والأسواق ؛ تغدو تراثاً غالياً يلتمسه الرواة الإسلاميون من بوادى الجزيرة التى احتفظت بنقاء عربيتها ، ويشدّون من أجله الرحال إلى منازل القبائل ، ليأخذوا من أفواه الأعراب ماوعت ذاكرتهم من تراث الآباء والأجداد .

ثم عكفوا عليه ، يدونونه ويصنفون منه معجم ألفاظ الفصحى ، لغة الدين والدولة ، ويستقرئونه ليستنبطوا منه قواعد نحوها واشتقاقها وتصرفها ، وخصائص بيانها وموازين شعرها .

واستوعبت هذه العربية ، ما عرَّب المترجمون من تراث الفلسفة اليونانية ونظريات العلم والفكر القديم ، فأدَّته عربيَّ اللسان إسلامى الروح . .

ووسِعَها ، فى طواعية مرنة وحيوية فذة وأصالة راسخة ، أن تستجيب لاتساع آفاق الدولة الإسلامية ، واعية لدورها الجليل فى الوفاء بحاجات الحياة اللغوية للحضارة الإسلامية الرائدة ، ومدركةً مغزى كونها لغةَ أمةٍ قوية قائدة ، ولسان شعوبٍ ذات عراقة فى المدنية والفكر والثقافة .

ومايزال التاريخ فى عجب من أمر هذه العربية : كيف استطاعت بعبقرية فذة ، أن تأخذ مجراها الحيوى بين الأصالة والتطور ، لتكون لغة الدين والعلم والأدب والثقافة ، لشعوب تفاوت ميراثها الحضارى ، واختلفت سلائقها اللغوية باختلاف ألسنتها الأولى ، وتحقق وجودها اللغوى محافظة على أنق أصالتها العريقة ، ومتجددة مع الحياة التى لا تسمح بالبقاء لما لا يصلح للبقاء ؟ !

* * *

ومن قبل أن تخترع المطبعة فى الدنيا ، كانت دور العلم والحكمة تقوم على ساحة العالم الإسلامى من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب ، صروحاً شامخة للمعرفة ، ومنارات هادية فى ليل العصور الوسطى .

ومن قبل أن تقرأ الدنيا أول كتاب مطبوع ، كانت هذه الدور الإسلامية كنوزاً عامرة بملايين الذخائر من الكتب المخطوطة ، فى شتى فروع العلم وضروب المعرفة وفنون الثقافة . . .

ثم تغيرت الدنيا ، وتحول مُتَّجه الحضارة من الشرق الإسلامى إلى الغرب الأوربى ، على المعابر التاريخية التى نقلت تراث علومنا وكنوز حضارتنا : البوسفور وصقلية والأندلس . . .

وتعرض العالم الإسلامى ، مشرقه ومغربه ، لتيارات غزو جائح مذهبى وفكرى ولغوى ، وعسكرى واقتصادى . .

وبقيت العربية تتحدَّى ذرائع القهر والضياع ، وتفرض وجودها الحيوى على الدنيا . .

وبقى القرآن ، ويبقى لنا أبداً ، يحمى وجود أمتنا ويقود مسراها فى ظلمات المحن وغواشى الخطوب ، ويجلو بصيرتها بنور العلم والحكمة ، ويهدى خطاها فيما تحمل من تكاليف وجودها الحر الكريم ، جهاداً فى سبيل الله ، ضد الباطل والشر والقبح :

« هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياتِه ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبلُ لفى ضلال مبين » .

صدق الله العظيم

وراء الأسوار

« علم الإنسان ما لم يعلم »

من عجب أن صحراء الجزيرة العربية ، مهد العربية والإسلام ، ظلت بمعزلٍ عن كل هاتيك الأحداث الكبار ، لا تكاد تحس حركة سير الزمن بلغة العرب وأمة القرآن ، ولا تدرى شيئاً عما ارتدنا وارتاد غيرنا من جديد الآفاق ، واكتشفنا واكتشفوا من مجاهل الكون وأسرار الحياة وموازين القوى ، وسخرنا وسخروا بإذن الله ، من ظواهر الطبيعة وخواص العناصر . . .

مضت قرون أربعة عشر ، وملايين المسلمين فى شتى أقطار الأرض يولون وجوههم حيثما كانوا شطرَ المسجد الحرام فى أم القرى ، مصبحين وممسين وعَشِيًّا وحين يُظهرون ؛ ومئات الألوف منهم يسعون إليه فى موسم الحج من كل سنة قمرية ، ملبين ضارعين :

لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك

غير أنهم قلما يتجاوزون الحجاز إلى نجد ، فضلا عن أن يوغلوا فى الدهناء والربع الخالى . .

وكلما هل هلال رمضان ، احتشدت مواكبهم لرؤيته ، وبدءوا به موسمهم الدينى الكبير صياماً ومجاهدة ، احتفالا بالشهر الذى بدأ فيه نزول القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، وقلوبهم ترنو فى خشوع إلى غار حراء بمكة ، حيث بزغ نور الفجر الصادق .

وصحراء الجزيرة ، على مسار تلك القرون ، قائمة هناك بكل صمتها العميق وسرها المحجوب ، تترامى وراء أسوار جبالها الحاجزة عن تهامة وساحل البحر الأحمر ، ممتدة إلى شطوط الخليج ومشارف اليمن فى عزلة موحشة : لا تعرفها دنيانا وإن تكلمت بلغتها ، وبايعت نبيًّا من صميم قبائلها ، وآمنت بدينٍ حمله إليها عربٌ خُلَّص من جند الإسلام الأولين .

بقيت الصحراء هناك ، لا يكاد يلم بها أحد سوى جماعات من البدو الرحَّل يهيمون فى فلواتها ملتمسين مواقع الغيث ومنازل المطر ؛ وعلماءُ الاستشراق فى كبريات العواصم من عالم اليوم ، عاكفون على جمع ذخائر تراثها ودرس شخصيتها ، وطلابُ الجامعات والمعاهد فى المشرق والمغرب يدرسون أصيل الفصحى ويحفظون أمثال البدو وأراجيز الرعاة ، ويعرفون وقائع مهلهل وعنترة ، ومغامرات الصعاليك وقصص الفتيان ، ويسهرون على نار حاتم والمحلق ، ويشجيهم على بعد الديار بكاءُ الأطلال ومراثى

الأحباب ، ويكادون يسمعون رغاء الإبل وتصهال الخيل ونزع الأوتاد عند شدِّ الرحال ، كأنهم مع الحارث بن حلزة البكرى إذ يقول .

أجمعوا أمرهم عشاءً فلما أصبحوا أصبحتْ لهم ضوضاءُ
من منادٍ ومن مجيبٍ ومن تصـ ـهالِ خيلٍ ، خلالَ ذاك رغاء

بقيت الجزيرة ، فيما عدا أطرافها وقُراها ، نائية مهجورة غامضة مقنعة ، لا تريد أن تتصل بالدنيا خارجَها أو تبيح حماها لغير أهلها الأعراب البداة . . قد آثرت العزلة على الاتصال بالدنيا ، وأقامت بواديها الواسعة ورمالَها المتراكمة وصخورَها الصلبة ، أسواراً منيعة تحمي أعرافها وتقاليدها وعاداتها ، غير مستجيبة لتطور الحياة ولا مكترثة بسير الزمان [فلو أن أحد العرب القدامى عاد إلى تلك البقاع من الجزيرة لما وجد ما يثير دهشته : سيجد العرب فى خيامهم السود ، والبدو الرحل على ظهور إبلهم ، والرعاة يستسقون . سيجد كل شيء فى مكانه كما تركه ، وملابس الناس كما كانت ومظهرهم الجسمانى لم يتبدل][1] .

الدنيا الجديدة ، من وراء أسوار الجزيرة ، انتقلت من عصر البخار إلى الكهرباء فالذرة ، ومن عصر القاطرة والباخرة إلى السيارة والطائرة ،

والجزيرة فى عزلتها العنيدة تتحدى كل تغيير وتمتنع على كل تطور . وتترامى صحاريها : الدهناءُ والنفودُ والربعُ الخالى ، من شرق نجد ومن شمال وجنوب ، حدًّا فاصلاً بين عالم اليوم ، وتلك الصورة الباقية من قديم الزمان .

حياة فطرية بدوية ، لا تكاد تختلف فى شيء عن تلك التى عرفتْها العربُ البائدة فى قديمها الغابر ، فيما عدا الإسلام الذى اعتنقته الجزيرة ديناً من زمن المبعث ، فكان آخر عهدها بالأصنام والأوثان .

« بحار من الرمال الناعمة تكاد تبتلع المارة لنعومتها وتخلخلها ، وقبائل من البدو الرحَّل الرعاة ، المطرُ محور حياتهم ومشغلة بالهم ، فأهل نجد لا يأبهون لشيء إذا رزقهم الله المطر تحيا به زروعهم وأنعامهم . أما الصحراء الجنوبية فلا يكاد يصيبها الرذاذ ساعة واحدة كل ثلاث سنين أو أربع »[2] .

---

(١) ر . ف . بودلى : (الرسول) ترجمة محمد فرج وعبد الحميد السحار .
(٢) السيد حافظ وهبة : جزيرة العرب : ص ٦ .

وهم مع ذلك راضون عنها متشبثون بها ، وربما عرضت لبعضهم فرصة الحياة الناعمة فى حضر ، فرفضوا أن يستبدلوها بحياتهم الشاقة القاسية . الخشنة الجافية . وبفرض أنها حياة تقصر الأجل ، فهى تهب مع العمر القصير نعمة الحرية والانطلاق . والآجال ، بعدُ كتابٌ موقوت على الناس جميعاً ، بدوهم والحضر « فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » ، « أينما تكونوا يُدرككم الموتُ ولوكنتم فى بروج مشيدة » .

ولعل فيهم من لا يزالون يحفظون ، مع ما يتلون من آيات الفرقان فى حتمية الموت ، أقوالاً لشعرائهم الجاهليين جرت مجرى الأمثال ، كقول الشاعر الشاب « طرفة بن العبد » البكرى :

أرى الموت أعدادَ النفوس ولا أرى بعيداً غداً ما أقربَ اليومَ من غدِ
لَعمرُكَ إن الموت ما أخطأ الفتى لَكَالطِّوَلِ المُرْخَى وثِنياهُ باليد

وقول شيخهم الحكيم «زهير بن أبى سلمى» :

ومَن هابَ أسبابَ المنايا يَنَلْنَه ولو رام أسبابَ السماء بسُلَّمِ

وقول « السُّلَكةِ ، أم السلَيْك » الفتى الجاهلى الصعلوك ، تبكى مصرعَه :

راح يبغى نجوةً من هَلاكٍ فهَلَكْ والمنايا للفتى رصدٌ حيث سَلَكْ

وشهدت دنيانا فى العصر الحديث مثل هذه المفارقات :

فى ربوع النيل والشام وبلاد النهرين وإيران ، مما يلى حدود الجزيرة العربية غرباً وشمالا وشرقاً ، قصور باذخة ، ومبان راسخة منها آثار تبلغ من العمر ألوف سنين .

وغير بعيد منها فى الجزيرة العربية بُداةٌ رُحَّل يسكنون الخيام المتنقلة معهم حيث نزلوا ، لا يعرفون فى القرن العشرين ، فائدة للأبواب والنوافذ الخشبية « حتى إن البدو الذين كانوا فى جيش الملك حسين[١] إبان الحرب العظمى ، كان عملهم بعد الاستيلاء على الطائف ، نزع خشب النوافذ والأبواب لا لبيعها والانتفاع بثمنها ، بل لاستعمالها وقوداً للقهوة أو الطبخ أو التدفئة . وبدوُ نجد قد فعلوا مثل ذلك تماماً : فعندما أسكنت الحكومة بعض القبائل فى ثكنة جَرْوَل ، اكتشفت أن النوافذ والأبواب الخشبية تنقص بالتدريج ، وأنها استعملت للطبخ وتحضير القهوة . وأخرجهم جلالة الملك توًّا من الثكنة ، وأسكن الحضَرَ

(١) الملك حسين ، الشريف الهاشمى ، أبو فيصل الأول وعبد الله ، ملكى العراق وشرق الأردن . كان الشريف حسين ملكاً على الحجاز حتى هزمه النجديون سنة ١٩٢٥ . ودخل الحجاز مع سائر مناطق الجزيرة فى المملكة العربية السعودية .

فيها . والحضر بطبيعتهم يفهمون ما لا يفهمه البدو عن النوافذ والأبواب »[١] .

وكان الحجاج من الأقطار الإسلامية المجاورة للجزيرة ، يسعون إلى حدودها ، راكبين البواخر والسيارات والقطر الحديدية ، فإذا بلغوا الحجاز تنقلوا بالجمال من حيث جاءوا ، إلى مكة والمدينة .

وحين كان المنطاد (جراف تسبلين) يحلق فى أفق الشرق الأوسط سنة ١٩٣٠ م ، كان مشايخ نجد وأهلها بعامة ، يرون التلغراف اللاسلكى من عمل الجن ، ويشفقون على عاهلهم « الملك الراحل عبد العزيز آل سعود » من عواقب الإصغاء إلى جند الشيطان الذين يزينون له استخدام السيارة واللاسلكى !

حدَّث « السيد حافظ » وهبة أن جلالة الملك أوفده إلى المدينة سنة ١٩٢٨ م ، مع عالم من علماء نجد ، للتفتيش الإدارى والدينى .

« فجرى فكرُ التلغراف اللاسلكى وما يتصل به من المستحدثات . فقال الشيخ : لاشك أن هذه الأشياء ناشئة من استخدام الجن ، وقد أخبره ثِقَةٌ أن التلغراف اللاسلكى لا يشتغل إلا بعد أن تُذبَح عنده ذبيحة ويُذكَر عليها اسمُ الشيطان » :

« ثم أخذ يذكر لى بعض القصص عن استخدام بنى آدم للشيطان ! ولقد كان شرحى لنظرية التلغراف اللاسلكى وتاريخ استكشافه ، ليس له نصيب من إقناع الشيخ . ولم أجد أية فائدة من وراء البحث ، فسَكَتُّ على مضض . . .

« وفى يوم من الأيام ، دعانى الشيخ لمرافقته لزيارة قبر حمزة ، عم الرسول — عليه الصلاة والسلام — عند (أُحُد) حيث استشهد حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه — وفى أثناء الطريق ، أوقفت السيارة عند محطة التلغراف اللاسلكى . وهنا سأل الشيخ : لماذا وقفت السيارة ؟ فأجبته : لنرى التلغراف اللاسلكى ، فإذا كان هنالك ذبائح ودعوة لغير الله ، فإنى سأحرقه مهما تكن النتيجة ، فالدِّين لله لا لابنِ سعود . وقد يكون الملك مخدوعاً فى أمر هذه التلغرافات ، وتُذكَر له الأشياء على غير حقيقتها .

« فقال الشيخ : بارك الله فيك » .

« فدخلت المحطة ، وبعد البحث لم يجد الشيخ أى أثر لعظام الذبائح وقرونها أو صوفها . ثم أراه العاملُ طريقة المخابرة . وفى دقائق ، تبودلت المخابرات والتحيات بينه

---

(١) حافظ وهْبة : جزيرة العرب .

وبين جلالة الملك فى جدَّة . . كانت هذه الزيارة البسيطة مدعاةً للشك فيما كان يعتقده من عمل الشيطان فى المخابرات . ولكنه ظن أنى ربما دبَّرتُ هذه المكيدة بإيعاز من الملك . فزار الشيخ محطة التلغراف بضع مرات منفرداً فى أوقات مختلفة بدون أن يخبر أحداً بعزمه ، فكان يفاجئُ العامل بالزيارة ويسأله عن كل ما يغمض عليه . . وعندما وُضعت الآلة اللاسلكية واستعملت فى الرياض – عاصمة نجد والمملكة – كان الناس يغرى بعضهم بعضاً بأن إنشاء هذه المحطة هو الحدُّ بين الخير والشر ، وكان العلماء يرسلون مَن يأتمنونهم لزيارة المحطة ورؤية الشياطين والذبائح تُقدم لهم ، فلم يجدوا شيئاً . وقد أخبرنى عامل المحطة أن بعض المشايخ الصغار ، كانوا يترددون عليه من وقت لآخر . لسؤاله عن موعد زيارة الشياطين ، وهل الشيطان الكبير فى مكة أو الرياض ؟ وكم عدد أولاده الذين يساعدونه فى مهمة نقل الأخبار ؟ فكان يجيبهم بأنْ ليس للشياطين دخلٌ فى عمله . وكان بعضهم يغريه بالنقود ، وأنهم سيكتمون السر ! »[1].

ولم تكن السيارات والدراجات ، أسعدَحظًّا من اللاسلكى فركوب الدراجة – واسمُها فى نجد : عربة الشيطان أو حصان إبليس – كان إلى عهد قريب إثماً ومعصية . فهى بدعة تسير بقوة السحر وعمل الشيطان ، بدليل أن الراكب إذا نزل لم تقف ! وكان فى الإخوان ، مشايخ نجد ، من يرون من حقهم ، أو من واجبهم الدينى ، منع هذا الإثم ، وضرب راكب الدراجة ولو كان من خدم الملك !

وحدث فى نجد ، وقد مضى من القرن العشرين نحو عقدين ، أنْ كُسِرَتْ أولُ ساعة دقاقة ، وعُدَّت من عمل الشيطان . ولم تكد هذه الفكرة تُشاع ، حتى قامت قيامة الإخوان من سكان البادية ، منكرين استعمالها ، وأعلنوا فى الناس فتياهم : « إن أقل الأحوال فيها أنها بدعة » مما اضطر أحد المشايخ – الشيخ سعيد بن سحمان – إلى أن يرد عليهم فى رسالة نشرها سنة ١٣٣٤ هـ ، ١٩١٦ م . وطبعت فى القاهرة سنة ١٩٢٣ م .

(١) حافظ وهبة : جزيرة العرب ، ص ٣٠٨.

المعركة الكبرى

« من اليوم ، سنحيا حياة جديدة »

الملك عبد العزيز

فى مثل تلك العزلة العنيدة عن الدنيا والحياة ، كان العرب من بوادى الجزيرة يعيشون بعقليتهم وأوضاعهم فى حصون منيعة وراء الأسوار ، يشهرون السلاح فى وجه كل تطور ، ويدفعون منكرات بِدَعه بالسيف .

وكانت تلك هى المعركة الكبرى التى خاضها عاهل الجزيرة الراحل « الملك عبد العزيز آل سعود » على كثرة ما خاض قبلها من معارك مشهودة . أذكر منها معركته التى استرد فيها « الرياض » من خصمه القوى اللدود « محمد بن الرشيد » شيخ قبائل شمَّر شمالىّ نجد . وكان جيش عبد العزيز الذى اقتحم به مُعقل العدو فى عاصمة نجد ، كتيبة من الرجال عدتهم أربعون ، أبقى أكثرهم عند سور البلدة ، وهاجم فى خمسة عشر من صحبه ، عاملَ ابن الرشيد فى حصنه بين جنده وحَرَسه ، فما انتصف النهار حتى أذن المؤذن من الحصن : إن الحكم لله ثم لعبد العزيز .

والأخرى التى لقى فيها عبد العزيز ، الشريفَ حسين ملك الحجاز ، سنة ١٩٢٥ ، فهزم جندَه بالطائف ثم دخل مكة فاتحاً دون حرب ، ومن بعدها دخل المدينة ، ثم جدة : آخر معاقل الأشراف .

لكن معركته الكبرى ، كانت هذه الثورة الإصلاحية ، يواجه فيها إخوانه وأهله وأصدقاءه ورعاياه ، وما أشق النضال حين يكون ضد أخ وصديق ، من هؤلاء الذين انتصر بهم على الملك حسين وعلى ابن الرشيد !

ومثل هذه المعركة ، لا تعرف المواقف الحاسمة ، وإنما هى جولات تتعاقب وصراع يتجدد كلما بدا لعاهل الجزيرة أن يدخل إليها جديداً من مخترعات الأجهزة ومُحدثات العلم . وقد لبث زمناً غير قصير ، متردداً بين رغبته فى الإصلاح ومسايرته الإخوان . وصابرهم طويلاً وهم على موقفهم من عداء العلم الحديث ومعاندة التطور .

أراد العاهل الكبير أن يمد سلكاً تليفونيًّا بين مكة ومعسكره فى جُدَاء ، والمسافة بينهما

تستغرق ثمانى ساعات ذهاباً ومثلها فى الإياب ، على ظهور الخيل والإبل السريعة . لكنه اضطر إلى إرجاء المشروع كيلا تثور ثائرة الإخوان الذين كانوا يقطعون أسلاك التليفون « لأنها منكر تجب إزالته » .

حتى إذا لم يجد بدًّا من نفع قومه وبلاده بمحدث المخترعات العلمية ، عمد إلى ملاينة الإخوان وإقناعهم بالحجة ، عسى أن يطمئنوا إلى أن ذلك كله من تحقيق آيات الخالق سبحانه ، فيما سخر لنا مما فى السموات والأرض جميعاً . وفى مؤتمر بالرياض ، دعا إليه العاهل كبارَ المشايخ فى يناير سنة ١٩٢٧ ، كان أقصى ما وصل إليه منهم ، بعد طول المناظرة والجدل ، الفتوى المشهورة :

« . . أما مسألة البرق فهو أمر حادث فى آخر الزمان هذا ، ولا نعلم حقيقته ولا رأينا فيه كلاماً لأحد من أهل العلم . فتوقفنا فى مسألته ، ولا نقول على الله ورسوله بغير علم . والجزمُ بالإباحة والتحريم ، يحتاج إلى الوقوف على حقيقته » .

وما كان لمثل الفُتيا أن تحسم الموقف ، وبدا أن الإخوان مصرون على توقفهم فى كل « أمر حادث فى آخر الزمان هذا » مما اضطر العاهل المصلح إلى اصطناع الحزم فى كلامه معهم .

حدَّث ، رحمه الله ، أن المشايخ حضروا عنده لمَّا علموا بعزمه على إنشاء محطات لاسلكية فى الرياض وبعض المدن الكبيرة فى نجد . فقالوا له : ياطويل العمر ، لقد غشَّك من أشار عليك باستعمال التلغراف وإدخاله إلى بلادنا ، وإن « فلبى » سيجر علينا المصائب . فقال لهم الملك : « لقد أخطأتم ، فلم يغشنا أحد . ولست ولله الحمدُ بضعيف العقل أو قصير النظر لأُخدَع . . وما « فلبى » إلا تاجر ، وكان وسيطاً فى هذه الصفقة . إخوانى المشايخ : أنتم الآن فوق رأسى ، تماسكوا بعضكم ببعض ، لا تدعونى أهزّ رأسى فيقع بعضكم أو أكثركم ، وأنتم تعلمون أن من وقع على الأرض ، لا يمكن أن يوضع فوق رأسى مرة ثانية . مسألتان لا أسمع فيهما كلام أحد لظهور فائدتهما لى ولبلادى ، وليس هناك من دليل أو سنَّة يمنع من إحداث : اللاسلكى والسيارات »[1] .

---

(١) عبد الرحمن نصر : عاهل الجزيرة ، ص ١١٨ وما بعدها ، وفلبى ، سانت جون : كان ضابطاً سياسيا فى دار المندوب السامى ببغداد . أوفده الإنجليز لمفاوضة ابن سعود سنة ١٩١٧ إبان الحرب العظمى ، والمعركة فى الميدان الشرق دائرة بين الإنجليز والترك . وقد أشهر فلبى إسلامه ، وسمى نفسه « عبد الله » ووضع خبرته الاقتصادية والسياسية فى خدمة الملك عبد العزيز ، وخدمة الإنجليز بطبيعة الحال :

ولم يحسم النزاع ، بل نال بعضهم العاهلَ الإمام « بموالاة الكفار والتساهل فى الدين . وأنكروا عليه تطويل الثوب والشارب ولبس العقال . إلى غير ذلك من ضروب الجهالة » وأصبحوا يُحرّمون كل ما لا يتفق ومذهبهم . حتى كادت تكون فتنة أهلية بين الإخوان والحكومة ، بين البدو والحضر . فجرد العاهل كتيبة من شباب المتفقهين فى دينهم ، وأوفدهم إلى شباب الإخوان ، عسى أن يُصلحوا ما أفسد الكبار ولما بلغ الأمر أقصى مداه ، عيل صبر العاهل الشيخ ، فأرسل جنده فى مستهل سنة ١٩٣٠ لتأديب « العُصاة الذين طغوا وعاثوا فى الأرض فساداً ، باسم الدفاع عن الدين وجئ برأس الفتنة « فيصل الدويش » بعد معركة أم الرضمة ، إلى خيمة الملك فى سيارة مكشوفة فكانت اللعنات تُصب عليه من أتباعه ، لركوبه السيارة !

وكان مما قاله الدويش بعد انكساره :

« يعلم الله يا عبد العزيز أنك لم تقصر معنا . وقد فعلتَ كل ما يبيض وجهك ، وقابلنا معروفك بالإساءة . لقد فررنا من وجهك إلى الكفار فحملونا إليك فى طيارة من طياراتهم . ويكفى ما أشعر به من الهوان والصغار أمام الإخوان ، بعد أن كنت عزيزاً محترماً »[1].

وقد عَدّ بعض الكتاب معركة (أم الرضمة) وما تلاها من استسلام « الدويش » للملك عبد العزيز : من المعارك الفاصلة بين النظام والفوضى ، وعدُّوا نصر الملك فيها : نصراً للتقدم على الرجعية .

وأصغت الجزيرة كلها إلى كلمة عاهلها ، بعد أم الرضمة : « من اليوم سنحيا حياة جديدة » .

لكن الواقع أن تحضير البادية لم يكن ليتم باستسلام هذا المتمرد أو ذاك ، ولا كان بحيث يتقرر فى هذه المعركة أو أخرى ، وإنما هو الصراع المستمر المتحفز ، يتجدّد مع كل مجلوب من مستحدثات العلم . وقد يكمن فترة تحت رماد الخضوع أو المداراة ، ليعود بعد حين أحدَّ ضراماً .

والذى حدث بالفعل بعد تلك الجولة ، أن حركة التحضير والتعمير سارت بطيئة فى

---

(١) كان فيصل الدويش من زعماء القبائل وكبار الإخوان ، خرج على الملك عبد العزيز سنة ١٩٢٩ ثم لما حاقت به الهزيمة هرب إلى الكويت وسلم نفسه إلى دورية بريطانية أعادته إلى الملك عبد العزيز – انظر : عاهل الجزيرة ٢٢١ : ٢٣٨ .

وجه مقاومة قوية من سلطان الإلف والعادة ، وموروث الأعراف والأوضاع . ويشهد على ذلك أن الملك عبد العزيز أعلن ، رحمه الله ، بدء الحياة الجديدة ، في شهر يناير سنة ١٩٣٠ ، وظلت البادية بعد ذلك تنظر في حذر وارتياب إلى كل خطوة نحو التحضر ، وتحاول أن تدفع منكراتِ البدع باللسان أو القلب ، بعد أن عجزت عن دفعها باليد . .

وبدا كأن الصحراء في حاجة إلى معجزة جديدة ، تضع حدًّا لهذه الحرب الخفية ضد العلم الذى يتجه إلى الإسلام في ترسيخ الإيمان ، وتُمكن عاهل الجزيرة من تنفيذ رغبته في إصلاح وطيد الأسس حاسم النتائج ، بدلا من هذه الخطوات البطيئة الحذِرة ، المهدَّدة في أى وقت بهجوم مضادٌ من الرجعية ، يعيدها القهقرى مجهدة مقهورة .

* * *

هل قلت إن المعركة كانت بين الرجعية والمحدثات من بدع الأجهزة والآلات ! إني إذن لم أقل كل الواقع ، فالحق أن أبعاد الصراع كانت أعمق غوراً وأوسع مجالاً ، لم يقف الصراع عند (البدع) المستحدثة في آخر هذا الزمان ، بل امتد إلى نمط العيش ومواد التعليم موغلا في الصميم ، لم يكد يدع كبيرة ولا صغيرة من شئون الحياة .

وقد نقلت آنفاً ، ماكان من نيل بعضهم الإمام العاهل بموالاة الكفار والتساهل في الدين ، وإنكارهم عليه تطويلَ الثوب والشارب ولبس العقال . ولنا أن نتصور مدى ماكان المجدد المصلح يحتاج إليه من جهد وصبر وحزم وحِكمة وطول بال . لكى يتغلب على عناد قوم ضجوا لأن المدارس تريد لتفتن التلاميذ عن العلم الحق الذى لا يمكن أن يخرج عندهم عن التفسير والحديث والفقه وعلوم العربية وتاريخ الإسلام . وكان من مظاهر الضجة أن « اجتمع علماء الدين من النجديين ، سنة ١٩٣٠ وتشاوروا في الأمر ، ثم أصدروا قراراً بالاحتجاج على إدارة المعارف في مكة ، لأنها أدخلت في برنامج التعليم : الرسم واللغة الأجنبية والجغرافية . » !

ولم ير العاهل من الحكمة أن يمضى في سبيله غير مكترث لاحتجاج المشايخ ، بل أوفد رسولاً إليهم « ليجلو لهم الأمر ويبحث معهم في شأن هذه المسائل التى احتجوا عليها وطلبوا إلغاءها من برامج التعليم » .

قال قائلهم :

« لقد بيَّنا للإمام عبد العزيز الأدلة والمفاسد التى تترتب على تقرير هذه العلوم : أما الرسم فهو التصوير وهو محرم قطعاً . وأما اللغات فإنها ذريعة للوقوف على عقائد الكفار

وعلومهم الفاسدة ، وفى ذلك ما فيه من الخطر على عقائدنا وعلى أخلاق أبنائنا . وأما الجغرافية ففيها كروية الأرض ودورانُها ، والكلامُ على النجوم والكواكب ، مما أخذ به علماء اليونان وأنكره علماء السلف » .

أريد لأقول : إن معركة أم الرضمة لم تكن الفاصلة كما بدت فى حينها ، فهذا الرفض لتدريس الرسم والجغرافية بمدارس مكة ، قد كان بعد استلام فيصل الدويش للملك عبد العزيز . ومشايخ نجد قد كانوا « يحرمون دروس المنطق والفلسفة ، وينكرون على بعض المتعلمين قراءة الصحف السيارة ، ويرون المثل الأعلى للعلماء ، أن يصرفوا أعمارهم فى الرد على مخالفيهم » ، ومن ثم أرادوا لإمامهم عبد العزيز ، أن يشغل بالدفاع عن مذهب نجد الوهابى ، والجهاد فى سبيل نقاء العقيدة الإسلامية من شوائب البدع ، وحماية البلاد من كل طارئ دخيل . .

* * *

وفيما كان الصراع على أشده بين التطور الحضارى والجمود على موروث الأوضاع والأعراف ، تجلت آية العلم فكشفت فى الفلاة الموحشة المغلَقة ، عن كنز ثمين مطمور تحت الحصى والرمال .

وسقطت الحواجز والأسوار . فإذا بصحراء الجزيرة تشد إليها الأنظار والأسماع فى عالم اليوم . . .

* * *

وجهاً لوجه
فى قلب الصحراء . . .

« وسخَّر لكم ما فى السموات وما فى الأرض
جميعاً منه ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون »
صدق الله العظيم

كانوا أشبه بفريق من الرحَّالة الروَّاد ، نزحوا من العالَم الجديد فى بداية الثلث الثانى من هذا القرن العشرين ، ونصبوا خيامهم بين جبال النهدين والظهران على حافة الربع الخالى ، حيث لا ظل ولا ماء ، بل المَهْمَهُ القفر يمتد عن يمين وشمال ، ومن الأمام والخلف ، ماحلاً موحشاً رهيباً ، تتلوى خيوط الرمال على أديمه كأنها الثعابين ، وتعوى الريح على أعالى قممه وكثبانه ، فتجاوبها من السفوح والقيعان أصداء كأنها عزيف الجان ، فهى كما وصفها « ذو الرمة » من وراء نحو ألف وثلاثمائة سنة :

ورملٍ لِعَزْفِ الجنِّ فى عقداتِه هريرٌ كتَضْرابِ المغنينَ بالطبلِ

نصبوا خيامهم هناك منبوذين بالعراء ، حيث الضوء الساطع من شمس الظهيرة يعشى الأبصار ، والظلمة الحالكة فى الليل البهيم تخلع الأفئدة . قد هجروا الأهل والولد ، وتركوا الحياة الناعمة المترفة فى أمريكا وراء ظهورهم ، عسى أن يكشفوا عن ينابيع للبترول قد تكون مطمورة تحت أديم بقعة من هذه الفلاة الموحشة .

قبلهم ، كان رواد آخرون قد سبقوهم إلى هناك ، فى شتاء سنة ١٩٣٠ ، ونقَّبوا عن الزيت فى الشمال الغربى من نجد ، ثم مضوا يائسين من الصحراء ، بعد أن أذابوا فى رمالها الملتهبة أكداساً من المال مختلطة بالعرق من جهد ضائع .

فجاء هؤلاء على أثرهم يستأنفون المحاولة ، بأمل جديد . وكانت منطقة الأحساء ، شرقىّ نجد والدهناء ، وجهتهم هذه المرة . فشقوا إليها ما يقرب من ألف ميل عبر الصحراء القاحلة ، موفَدين من شركة « ستاندرد أويل » فى كاليفورنيا ، وهى الشركة الوحيدة التى قبلت الدخول فى هذه المغامرة وتمويلها ، سعياً وراء كنز مجهول المكان ، مشكوك فى وجوده وقيمته .

وفى اليوم الثالث من سبتمبر سنة ١٩٣٣ ، وصل مدير الشركة إلى الظهران بعد توقيع اتفاقية الزيت مع الحكومة السعودية . وجاء معه بالرجال والآلات للتنقيب التمهيدى ، وبدأ الحفر فعلاً فى آخر أبريل من سنة ١٩٣٥ .

* * *

أكَبُّوا على تلك الرمال القاسية والصخور الجرداء ، يحفرون وينقبون ، بين قيظ يشوى اللحم ويصهر العظم ، وزمهرير يثلج البدن ويُجمد الدم ، منقطعين عن الدنيا نائين عن العمران ، يحيط بهم القفر اليباب من كل جانب ، وتراقبهم عن كثب عيون حديدة البصر ثاقبة النظرات . تحصى عليهم كل حركة وسكنة ، وترقب سير العمل فى حذر وارتياب .

تلك هى عيون العرب النجديين الذين التقى بهم الأمريكان وجهاً لوجه فى قلب الصحراء ، فكان صراع غيرُ سافر ولا صريح . .

* * *

خمس سنين من الجهد المضنى والحياة الخشنة القاسية والعمل الكادح ، أذابت الرمال فيها خمسة عشر مليوناً من الدولارات ، قبل أن تبيح لهؤلاء الكادحين قطرة من ذهبها الأسود ، أو تأذن لهم فى لحظة من راحة وأمان .

خمس سنين ، قضاها أبناء الدنيا الجديدة فى مجاهل المنطقة ، يحفرون البئر بعد البئر وينتقلون من قفر إلى قفر ، والصحراءُ ضنينة بسرها ممسكة عن العطاء لا تقدم إلى ضيوفها الغرباء إلا القيظ والزمهرير ، ولسعَ الصخور وعواصف الرمال ، والوحشة والملال . ولا تكُف عنهم ملاحقة حُرَّاسها الغلاظ الأشداء ، الذين أغضبهم أن تطأ أرض الجزيرة قدمُ كافرٍ من الفرنجة . .

لكن الباحثين عن الكنز ، كانوا يدركون أن اليأس هو عدوهم الألدُّ ، من ثم راحوا يحاربون هذا العدو فى أنفسهم ، ويخشونه أكثر مما يخشون حراس الصحراء ووحوش الفلاة . . أما التعب والملل وشظف العيش وعسر الحياة ، فداخلٌ كله فى الحساب ، وهل كانوا يجهلون يوم نزحوا من أمريكا ، أنهم ملاقو هذا النصب كله ومثله معه ؟

* * *

وكانوا قد تعلموا فى مدارسهم ومعاملهم بالغرب الحديث ، ألا ينصرفوا عن متابعة التجارب ، بعد إخفاق الأولى والثانية والثالثة والرابعة والخامسة . . .

وأكبوا من جديد على الرمال الكاوية ، يحفرون البئرين السادسة والسابعة .

وكانت معركة ، تلاقى فيها جبروت العلم مع جبروت الصحراء ، فتم النصر للعلم : هنالك كشفت الصحراء عن سرها الخطير ، وأباحت كنزها مَن دأبوا على البحث عنه فى عزيمة صامدة ، وإرادة عنيدة لا تتخاذل .

وتجلت آية العلم فى صحراء الجزيرة التى أصغت من نحو أربعة عشر قرناً إلى كلمات الوحى الأولى :

« اقرأ باسم ربك الذى خلَق »

فسبحت خاشعةً باسم الله الذى :

« علم الإنسان ما لم يعلم »

انتصر العلمُ وأثمر الجهد هذه المرةَ السابعة ، فأذاع البرق فى اليوم الثانى عشر من مارس سنة ١٩٣٨ نبأ حفر أول بئر للبترول فى الظهران من حقل الدمَّام الذى بلغت مساحته تسعة آلاف فدان ، وعمقه ٤٥٠٠ قدم . وعدد آباره اثنتين وثلاثين !

ثم توالت الأنباء من بعد ذلك معلنة فى الأعوام الأولى عن اكتشاف حقول :

أبو حدرية : سنة ١٩٤٠ وتُرِك مُغلقاً .

بُقيق : سنة ١٩٤١ ومساحته سبعة وسبعون ألف فدان ، وعمقه إحدى عشرة قدما ، وآباره ثمانى عشرة .

القطيف : سنة ١٩٤٥ ، وعمقه سبعة آلاف وثلثمائة قدم ، وآباره اثنتان .

ومن ثم بدأ سيل الذهب الأسود يتدفق سخيًّا من ينابيعه فى جوف الرمال .

وعلى الرمال الملتهبة ، تحت شمس الصحراء المحرقة وفى قلب الفلاة المهجورة الموحشة ، قامت معامل ضخمة تدفع سيل الزيت فى أنابيب تمتد أميالاً إلى موانى الشحن والتفريغ على سواحل الخليج والبحر المتوسط .

ولم يكن التفريغ أمراً هيناً .

أما فى الخليج ، فحين جاءت ناقلات البترول إلى الدمام لتحمل هذا السيل الدافق ، عاقها هناك عائق من طبيعة الإقليم فلم تستطع أن تصل إلى الساحل عند الدمام ، ميناء الظهران ، لأن مياه الخليج هناك ضحلة قريبة الغور .

لكن العلم لم يعجزه أن يصل حافة الصحراء بقلب الخليج حيث ترسو الناقلات ، بل تقدم فبنى ميناء تمتد ثمانية أميال فى عرض الماء . .

وأما عن البحر المتوسط ، فكان على حاملات البترول أن تقطع ثلاثة آلاف ميل كى

تصل من معامل الزيت فى الظهران ورأس تنورة ، إلى موانئ الساحل الشرقى للبحر المتوسط ، عن طريق خليج عدن والبحر الأحمر وقناة السويس . . وتقدم العلم فمدَّ خط أنابيب ، طوله ألف وسبعون ميلا فقط ، مبتدئاً من الأحساء ، ومتجهاً شمالاً بغرب إلى تل الحبر قرب حدود الأردن ، ومواصلا امتداده فى هذا الاتجاه عبر الأردن وسورية إلى أن يصل إلى ميناء صيدا ، من الساحل اللبنانى .

ويبلغ قطر الأنابيب فى هذا الخط ، ثلاثين بوصة . صُنعت بحيث تحتمل التمدد والتقلص من اختلاف درجات الحرارة ، ويستطيع هذا الخط الحصين أن يدفع إلى الميناء ثلاثمائة ألف برميل من الزيت ، كل يوم .

وازداد تدفق الزيت يوماً بعد يوم . وسجلت الإحصاءات الرسمية صعود الإنتاج من ٥٨٠ ألف برميل سنة ١٩٣٩ ، إلى خمسة ملايين سنة ١٩٤٠ ، ثم إلى واحد وعشرين مليوناً وثلثمائة ألف برميل سنة ١٩٤٥ ، ارتفعت إلى مائة وثلاثين مليوناً وتسعمائة ألف برميل سنة ١٩٤٨ [١] .

ومازال هناك آبار مغلقة لم تُستغل بعد .

* * *

ومع الزيت ، تدفقت الثروة ، فإذا بالصحراء القاحلة الماحلة الجرداء ، تجود بملايين الجنيهات كل عام ، نصفها للمملكة العربية السعودية صاحبة الكنز والأرض ، والنصف الآخر لشركة أرامكو صاحبة الامتياز [٢] .

وآن للمهاجرين المتعبين أن يظفروا فى تلك الفلاة الموحشة بحياة لعلها لا تقل عن حياتهم الأولى فى أمريكا رغداً وترفاً . ولحقت الأسر برجالها بعد أن غدت هذه المنطقة من صحراء الجزيرة عامرة غناء . .

* * *

هل خفَّ الصدام بين الشرق والغرب ، بين العرب والأمريكان ، بعد أن جادت الصحراء بعطائها ؟

---

(١) لمزيد تفصيل عن قصة البترول ، انظر كتاب : (المملكة العربية السعودية) تأليف كارل تويتشل ، ترجمة السيد شكيب الأموى و . طبع فى دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة سنة ١٩٥٥ .

(٢) جدَّ على الاتفاقية الأولى ، تغيير لشروطها وتعديل لحقوق المملكة ، ومازال الدول المنتجة للبترول تتابع جهودها فى سبيل عدالة التوزيع لعائد البترول .

كلا ، بل هو باق هناك ، وإن بدا للنظرة السريعة أن العهد به قد انتهى .

ويخطئ الذين يتوهمون أن الأمريكان قد غلبوا العرب على أمرهم : فما تزال العيون السود تلاحق أولئك الأجانب الغرباء ، بنظرات ثاقبة ملؤها الشك والحذر ، ساهرة على حراسة تراث الجزيرة وتقاليد العرب وشريعة الإسلام ، من ذرائع الغزو .

ولا تكاد ساعة تمر ، دون أن تذكِّر الجزيرةُ هؤلاء الغرباء بأنهم أجانب ، جاءت بهم ضرورة اقتصادية ومدَنية تقدر بقدرها . ولا ينبغى لهم أن يتخطوا الأسوار التى بناها عاهل الجزيرة ، وأقام عليها الحراس الأشداء .

وهى أسوار تسمح للمدنية الغربية أن تعمر الصحراء وتجلب إليها ما شاءت من محدثات الأجهزة والآلات ، لكنها لم تسمح بتسلل غزو فكرى يمسخ أصالة العربى أو يفتنه عن إيمانه وتقاليده ، أو يستعمر أرضه .

فلا بأس على الجزيرة مثلا ، إذا هى استوردت أحدث الطيارات من مصانع الغرب ، لكنها لا تأذن لها فى أن تجوس أجواء الجزيرة . إلا بعد أن تطبع عليها شعارها القومى الدينى :

« لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » .

* * *

فى نطاق هذه الحواجز يعيش الأجانب فى شبه عزلة ، لهم أحياؤهم السكنية الخاصة ، بمدارسها ومستشفياتها ومطاعمها ، لا يكادون يندمجون فى أهل نجد ، خارج منطقة العمل .

ويوم العطلة هناك الجمعة لا الأحد ، للعرب والأمريكان والأوربيين على السواء .

والتقويم الهجرى هو الذى تؤرخ به معامل أرامكو ومكاتبُها ، مثل سائر البلاد .

والتوقيت العربى هو التوقيت الرسمى : تشرق الشمس فى الساعة الواحدة ، وتغرب فى الثانية عشرة .

ومحظور بتاتاً ، أن تقام كنائس فى مهد الإسلام وجزيرة العرب ، وأن تدق أجراس ونواقيس ، حيث المآذن ترسل دعاء الإسلام من فجر المبعث .

ولا يؤذن لأى قسيس أن يطأ أرض الجزيرة لمهمة دينية ، فمن شاء من المسيحيين أن يتزوج رحل إلى البحرين مثلا ، ليعقد إكليل العرس .

وغير مسموح للمطاعم الأمريكية أن تقدم لروادها الخمر ولحم الخنزير ، كما يحظر على

(الكانتين الأمريكانى) عرض هذه المحرَّمات للبيع .

ويحتمل رجال الشرطة مسئولية أى مخالفة لهذه القوانين ، تقع فى دوائر عملهم . مفروض على الأجانب أن يعيشوا هناك ، جنود تعمير لا دعاة استعمار .

وبهذا استطاعت الجزيرة حتى الآن أن تحمى استقلالها من سيطرة الدخلاء ، وإن تركت المدنية والعصرية تغزو الصحراء وتعبد طرقها وتضيئها بالكهرباء . .

وترنو الجزيرة إلى غد يستطيع فيه أبناؤها أن يسيطروا على الآلة ، وفى سبيل هذا الأمل المرجو ، فرضتْ على شركة أرامكو أن تنشئ فى الظهران مدرسة لتخريج صناع من أبناء العرب ، يدرسون أسرار الكهرباء والميكانيكا والتكنولوجيا ، ويوفد الناجحون منهم إلى أمريكا ليكون منهم المهندسون والخبراء والطيارون . .

ترى هل يستطيع هؤلاء الشباب أن يقاوموا فتنة الفرنجة فى أمريكا كما قاوموها فى الجزيرة ، حيث القوانين صارمة والحراس أشداء ؟

الجواب فى ضمير الغد ، عندما يلتقى هذا الجيل من شباب العرب بالأمريكان وجهاً لوجه فى قلب العالم الجديد ، كما التقى جيل قبله وجهاً لوجه ، فى قلب الصحراء . .

ثورة فى الصحراء

« وارزُقْهُم من الثمراتِ لعلَّهم يشكُرون »

على متن الريح فوق السحاب ، كانت رحلتنا ما بين جدة والظهران . وقد مضت بنا الطائرة تشق أجواز الفضاء وتطوى البيد والقفار ، ونحن نحدق من نوافذها الصغيرة فى الصحراء المترامية من تحتنا ، فلا نرى خلال ساعات أربع غير التيه ، تتدافع فيه أمواج الرمال المتقدة فى وهج الظهيرة ، وتتطاير ذراتها فتعقد من حولنا سحباً كالضباب ، يلف هذا القفر اليباب . .

أربع ساعات عبر المهمه الماحل الأجرد ، لم نلمح فيها أثراً لحياة أو معلَما لطريق ، ولا سمعنا سوى أزيز الطائرة وهى تتعثر فى كهوف الهواء . .

ونظرت إلى رفاق السفر فى الطائرة ، فإذا فيهم نفر من البدو ركبوا معنا متن الهواء وامتطوا جناح هذا الطير على بساط الريح . وإن فيهم من شق أكباد الإبل فى مسيره عبر هاتيك الفيافى التى لا تنفك فى مخيلتهم ملعباً للغيلان ومراحاً للوحوش . . وعطفتُ على بدوية كانت تجلس أمامى فى عباءتها السوداء فسألتها : إن كان لها بركوب الطائرة عهد قبل اليوم ؟

فأجابت بصوت هامس ، حرصتْ على ألا يبلغ مسمع الرجال الأغراب :

– بل هذى أول مرة أخرج فيها من ديارنا ، وما عرفت قط غير الإبل مركباً .

قلت : فما ترين فى رحلة اليوم ؟

ردّت من فورها : عجيبة والله ! وما أدرى أهى من فعل ساحر من مردة الجان ، أم يعيش فى زمننا هاذاك بقية من جند النبى سليمان ؟

ولما سألتُها بلغة البادية ، أين تحط رحالها ؟

أجابت بأنها لاحقة برجلها العامل فى (الكامب السعودى) بالظهران . فابتسمتُ للمفارقة الطريفة بين عبارتى البدوية : تحط الرحال ، واللفظ الحديث الدخيل : الكامب .

وحمل لنا مضيف لحماً طريًّا وخبزاً طازجاً شهيًّا وشراب الكولا والأناناس ، فأخذت

أرقب جارتي وهي لا تجرؤ على مس أقداح الشراب ظنًّا منها أنه من الحرام . . .

ولاحت لنا مياه الخليج أشبه بواحة في الصحراء ، وحوَّمت الطائرة حول مطار الظهران وقد تناثرت فيه الحظائر والمباني كأنها أعشاش طير ، وعلى أرضه كانت بضع طائرات جاثمة ، شبيهة بجراد منتشر .

ولبثت الطائرة نحو عشر دقائق تدرج فوق ساحة المطار ، قبل أن تستقر على مهبطها ، ونحن لا نكاد نصدق أننا عبرنا الجزيرة من جدة على ساحل البحر الأحمر ، إلى الظهران على ساحل الخليج ، في ساعات ما بين ضحى وأصيل !

وتمثل لي آنذاك شاعرنا « طرفة » وهو يضرب بناقته في الدهناء أياماً وليالي ، ورحت أسترجع أبيات قصيدته المعلقة ، في وصف مطيته تلك الأمون الذلول !

هكذا من الناقة إلى الطائرة !

من الهودج ، إلى صالون داكوتا وبريستول ؟

من ماء الأمطار والآبار والعيون ، إلى شراب الأناناس والكولا ؟

ياله من انتقال سريع عبر هوة شاسعة ، فما عرفت الدهناء من قبل عربة أو سيارة ، ولا عهدت قطارا يجوس خلال دروبها ويمرق بين كثبانها ، حتى اليوم !

* * *

وكان مقامنا بالظهران في غرفات عصرية من دار الضيافة ، وثيرة الفراش مضاءة بالكهرباء ، مكيفة الهواء لا نرى فيها شمساً ولا زمهريراً .

وليس بيننا وبين الصحراء بقيظ نهارها وصقيع ليلها ، سوى جدار بسيط تسفعه السافيات وتلطمه الهبوب .

أي ثورة وأي انقلاب ؟

لقد كانت هذه البيد لا تعرف من المساكن سوى الخيام المتنقلة تقام على العمد والأوتاد وتُشد بالأطناب . ولا ترى من الطعام سوى الخبز القديد ولحم الإبل ويابس التمر وماء المطر . أما الغرفات المبنية والنعم الطيبة فكان موعدهم بها في جنة الخلد ، إذ المؤمنون « في الغرفات آمنون » ، « لهم غرف من فوقها غرف مبنية » ، « وفاكهة مما يتخيرون . ولحم طير مما يشتهون » .

* * *

هي آية العلم كشفت عن الكنز المخبوء في أحشاء الدهناء وأعطت الثروة وبثَّت الحياة في

ذلك الخراب ، وحولّت التيه المرهوب إلى جنة فى الصحراء .

هذه آبار الزيت ، تدل عليها شُعَل حمراء ساطعة الذوائب ، تضيء هذا الظلام مؤذنةً بعهد جديد فى الدهناء التى طال ليلها وضل فيها الخيال ، ومذكرةً بنار القرى التى كان حاتم الطائى يأمر غلامه بإيقادها على جبال طيئ فى ليل الدهناء ، وبتلك النار الأخرى التى بات عليها « أعشى قيس » آكلا شارباً ، فى ضيافة « المحلق » وبناته ، ثم غدا ساعياً إلى الموسم وهو يترنم بأبياته المشهورات :

لَعمرى لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضوءِ نار باليفاع تحرَّقُ
تُشَبُّ لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلق

فرجَّعت أرجاء الجزيرة صدى صوته عبرَ قرون طوال من ليل الجاهلية ، حتى بلغ منا مسمعاً ونحن نتجول فى الأحساء ، منتصف القرن العشرين .

ومعالم العمران ماضية فى غزوها للصحراء ، تنجاب أمامها ظلال الأشباح التى طالما عمرت الدهناء والنفود والربع الخالى ، وتجولت طليقة بين النهدين والظهران . .

معلنة أن العلم قد انتصر على عناد الصحراء ، كما انتصر على غيرها من برّ وبحر ، وذلَّل شوامخ الجبال الراسيات ، وسخر السحب واتخذ سبيله بينها سَرَباً إلى أعالى الفضاء .

وأنابيب الزيت تعترض سبيلنا هناك وهنالك ، ممتدة شرقاً من الدمام وبُقيق ورأس تنُّورة إلى البحرين على ساحل الخليج ، وشمالاً بغرب ، إلى صَيْدا على ساحل البحر المتوسط .

مسجلةً أن الإنسان قد اكتشف السرَّ الخطير الذى أجَنَّته أحشاءُ البيداء دهوراً وأحقاباً ، وأزاح كثبان الرمال والصخور عن منجم الذهب الأسود المطمور تحت أديم الصحراء . .

صُوَرٌ من الجزيرة

- المغتربات
- جارة النبي
- هاجر
- آمنة

المغتربات

« . . . ليتنا نقدر أن الغرب ، الظافر الغالب ، يدين لهؤلاء المغتربات بأكثر ما يتمتع به من نفوذ سياسى واقتصادى ، فى أرضنا الطيبة التى اغتُصبت زماناً ، وشرقنا الذى غلب طويلا واستُبيح ! » . .

لقيتُهن هناك فى صحراء الجزيرة ، قد تخلين طائعات عن الحياة الناعمة فى أوطانهن ، وتبعن أزواجهن إلى ذاك المكان النائى الموحش ، ليهيئن لهم من دفء العش وأُنس الأسرة ، ما يعينهم على العمل الكادح والكفاح الصعب ، بين الصخور والرمال . . .

لقيتهن هناك فى الدهناء : أمريكيات وأوربيات وآسيويات ، عصريات مثقفات ، قد رضين بالعيش فى تلك الفلاة المهجورة ليمسحن بأناملهن الرقيقة العرقَ المتصبب من جباه رجالهن العاملين فى وقدة الرمضاء . . .

ورأيتهن هناك : ابتسامةً وضيئة فى وجه الصحراء الغضوب ، وأطيافاً رشيقة أنيقة وسط المهمه القفر ، ونغمة عذبة تروِّح عن الرجال الذين يعملون بين ضجيج الآلات الضخمة الماردة ، وصفير الرياح الصرصر العاتية ، وعواء الوحوش الضالة الهائمة على حافة العمران . . .

لقد استطاعت الثروة المتدفقة من آبار الذهب الأسود ، أن تبنى للنغتربين مساكن طيبة ، حولها حدائق مزهرة غناء ، تصد عنها بعض لفح الهجير وعواصف الرمال ولطمات الرياح السافيات !

ولم يشق على شركة الزيت أن تضىء منازل رجالها بالكهرباء ، وتكيف فيها الهواء ، وتزودها « بالتليفون والراديو والفريجيدير » ، لكنها لم تكن لتستطيع – ولو ظفرت بمال قارون وعثرت على كنوز سليمان – أن تذود عن الرجال الضجر والملال والوحشة ، وأن تمس مساكنهم بتلك اللمسة اللطيفة التى تتركها الأنثى حينما مست يداها ! أو تبث فى المساكن المزودة بآلات التبريد والتسخين والإضاءة والتكييف ، روحاً من الأنس واللطف

والرقة والحنان ، كتلك التى تلقيها الزوجات والأمهات ! !

هن اللواتى يجعلن المنازل بيوتاً وسكناً ويبعثن الحياة فى ذلك الخراب اليباب ، وينبتن فى الأرض القاحلة الماحلة ، زهرات إنسانية يانعة ، تعطر الجوَّ الصحراوى بأريج الطفولة الباسمة المتفتحة للحياة !

ومن أجل هؤلاء الأطفال ، أُنشئت المدارس والملاعب فى منطقة الزيت بالصحراء ، واستطاب الآباء مرارةَ الكفاح ، واستمرءوا طعم العيش مع وحشة الاغتراب .

* * *

ومضيت ألتمس مصريًّا واحداً بين الرجال العاملين فى شركة الزيت ، فلم أجد !

وقيل لى فيما قيل : إن الجزيرة ألحت فى طلب مهندسين وأطباء وعمال من أبناء مصر ، فلم يستجب لها أحد كما استجاب آخرون : من الهند وإندونيسيا وإيران ، وسورية ولبنان وفلسطين ، وأوربا وأمريكا . .

لماذا رفض المصريون أن يستجيبوا لدعوة الجزيرة ، مع أنها تلقاهم بترحاب حار لا يظفر به أجنبى ، وتنزلهم بين أبنائها مكاناً عزيزاً تضن به على الغربيين الغرباء ؟

لسبب بسيط ، هو أن المصريات يأبين الهجرة ولو إلى قطر شقيق ، ويرفضن أن يتبعن أزواجهن ولو إلى بلاد العرب ، مهما تكن المغريات[1] !

وكنَّ أوْلى بأن يفعلن ، لأن حياتهن هناك لا يرهقها شعور بالغربة ، فى بلاد نتكلم بلغتها ، وندين لها بالإسلام !

أليس من العجيب أن تعيش هناك غربيات أعجميات لا يعرفن حرفاً من العربية ، ولا يؤذن لهن بأن يؤدين شعائر دينهن – إذ الجزيرة تحرم بناء الكنائس ودق النواقيس ودخول القسس والرهبان – فى الوقت الذى تأبى فيه تلك الحياةَ ، مصرياتٌ ينزلن هناك بين أهلٍ وجيران ، وإخوانٍ فى الدين واللغة والقومية ؟

أليس من العجيب أن ترضى بالعيش فى الظهران ، غربية عصرية ، قد تكون ولدت فى نيويورك أو روما أو باريس ، ولا ترضى به مصرية قد تكون مولودة فى قلعة الكبش ، أو صفط تراب ، أو زاوية الناعورة ، أو دشنا وفرشوط ؟

(١) كتبت هذا ، سنة ١٩٥٢ ، قبل أن تلوح على أفقنا بوادر السعى إلى العمل فى الأقطار العربية الشقيقة ، إعارة أو هجرة .

كلا ، ليس فى الأمر ما يستغرب ، فكذلك كانت نساؤنا من قديم الزمان ، وأىٌّ هكذا خُلِقْنَ ، والأمر لله !

إن المصرية تأبى أن تنزح من القاهرة إلى الجيزة ، أو من الإسكندرية إلى دمنهور ، ويندر أن ترى قاهرية ترضى بالزواج من رجل يعيش فى الريف ، ولو كان من ملاك الأراضى وكبار الموظفين .

ويتعذر على شبابنا المتعلمين الذين يعملون فى الأقاليم ، أن يجدوا زوجات صالحات ، يحتملن العيش بعيداً عن أضواء العواصم ! وأعرف من فتياتنا المخطوبات من تشترط لإتمام عقد الزواج أن ينقل الخطيب إلى القاهرة . .

وتستطيع إدارة الإحصاء أن تضع بين أيدينا أرقاماً لا تكاد تُصدق ، عن طالبى النقل إلى كبريات المدن !

فهل نعجب إذا لم نجد بيننا من تتبع زوجها إلى الصحراء فى جزيرة العرب ؟ !

إنى لأذكر زوجات بعض الموظفين فى إحدى المزارع النموذجية قرب القاهرة ، فى منطقة أشبه بالجنة ، قد رفضن أن يعشن هناك فى (الفيلات) الأنيقة المضاءة بالكهرباء ، والمتصلة بالعاصمة بخطوط تليفونية مباشرة ! وآثرن جحيم المدينة على جنة الريف . .

وفى مجاهل إفريقية وآسيوية ، تعيش غربيات غريبات ، يفهمن حق الفهم دورهن فى الحياة ، ويقدرن واجبهن نحو رجالهن وأوطانهن !

فليتنا ندرك أن الغرب ، الظافر القاهر ، يدين لهؤلاء المغتربات بأكثر ما يتمتع به من نفوذ سياسى واقتصادى ، فى أرضنا الطيبة التى اغتُصِبت زماناً ، وشرقنا الذى غُلِب طويلاً واستُبيحَ ! ! . .

الظهران : ١٠ / ٢ / ١٩٥١

جارة النبي . . .

« قُلنا يانارُ كونى برداً وسَلاماً على إبراهيم » .

سعينا إلى الحرم النبوى فى جلوة الفجر ، يحدونا دعاء السماء الذى ظلت مآذن المسجد الطاهر ترسله منذ نحو ألف وأربعمائة عام ، فتسرى به الملائكة ملء الدُّنى ، وتُرَجِّعه الأطياف السارية على أجنحة من النور ، وتتجاوب به القمم والسفوح والأودية فى رنين علوى النغم ساحر الأصداء ، فإذا الكون كله تسبيحة مؤمنة وترنيمة هائمة !

وإذ بلغنا باب المسجد ، خلعنا نعالنا وسرنا خُشَّعاً نحو الروضة الشريفة ، وقد صفَا الحس وشفَّ الشعور ورقّ القلب ، واندمجت شخوصنا المتعبدة فى ركب الأرواح المطيفة بحرم النبى ، الحائمة حوله ، نكاد نميز فيها أطياف الصحابة الأبرار من المهاجرين والأنصار !

حتى إذا قُضيت الصلاة ، انتشر القوم خارج المسجد ساعين على رزقهم يبتغون من فضل الله ، وبقيت قلةٌ من الذين انقطعوا عن الدنيا ، وآثروا على كل متاع فيها ، جوارَ الرسول الحبيب . وآخرون أرهقتهم الهموم والأحزان فلاذوا بنبيهم الكريم ، يسألون الله تعالى بحق هذا النفس الطاهر فى المكان الطاهر ، أن يرفع عنهم الكرب ويدفع السوء والبلاء . . .

وكنت قد اخترت مكاناً منفرداً فى الحرم أتأمل ، وأحاول أنْ أستحضر الذى وعيتُ من مشاهد التاريخ الإسلامى منذ عام الهجرة ، إلى أن لبى المصطفى ، عليه الصلاة والسلام ، نداء ربه ، وثوى جسده الطاهر فى هذه البقعة المباركة الباقية على الزمان ، مزاراً مقدساً للمسلمين من شتى أقطار الأرض .

ومرّ بى فى مجلسى عددٌ من النسوة يطفن بالمقصورة الكريمة ، فلم ألق إليهن بالا . حتى إذا فرغن من طوافهن جلسن غيرَ بعيد منى شاكيات داعيات ، فحاولت أن أصرف سمعى عن أصواتهن ودعواتهن كيما أفرغ لتأملاتى . لكنى ما لبثت أن سمعت صوتَ نشيج مختنق ، رجَّعته جوانب الحرم فكان له صدىً لافِت ، وجمِنا له حيناً حتى صرفنا عنه قارئ من قراء « المدينة » يتلو بعض قرآن الفجر .

وأدرت رأسي ألتمس الباكية ، فألفيتها إلى جانبي : امرأة نحيلة الجسم بادية الضعف والشحوب ، تنتفض في ألم مكبوت وتحاول عبثاً أن تخنق أنفاسها المتلاحقة . .

وأنكرتْها النسوةُ من حولها فتركنَ لها المكان ، وبقيتُ وحدى إلى جانبها أرنو إليها في رثاء وعطف ، حتى رفعتْ نحوى وجهها الشاحب المبلل بالدموع وهتفت بي فجأة :

– ادعى لى !

قلت في حرارة وتأثر :

– الله معك !

فأشرق وجهها لحظة ، وبدا لى حينذاك أنها ليست من أهل الجزيرة ، فسألتُها :

– غريبة أنتِ عن الديار ؟

أجابت وهى تشهق :

– وى ! غفر الله لى ، أتكون غربةٌ مع جوار النبي ؟ ولكن لى في بلاد بعيدة فلذة كبد غالية ، وأشعر بنار الشوق تأكل قلبي ، فأفزع إلى ربي لعله يردها برداً وسلاماً . هل تحفظين ياستى كتاب الله ؟

قلت وأنا أعجب لانتقالها المفاجئ :

– أرجو ، فما الذى تبغين ؟

أجابت في لهفة :

– تقرئين لى قصة نار إبراهيم ، فإني أشعر كلما سمعتها براحة . .

فأدركت ماتعني ، وتلوت عليها آيات إبراهيم من سورة الأنبياء :

« والله لأكيدَنَّ أصنامَكم بعد أن تُوَلُّوا مدبرين . فجعلهم جُذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون . قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين . قالوا سمعنا فتىً يذكرهم يُقالُ له إبراهيم . قالوا فأْتوا به على أعيُنِ الناسِ لعلهم يَشهدون . قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يإبراهيم . قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون . فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون . ثم نُكِسُوا على رءوسهم لقد علمتَ ما هؤلاء ينطقون . قال أفتعبدون من دون اللهِ ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم . أُفٍّ لكم ولما تعبدون من دونِ اللهِ أفلا تعقلون . قالوا حَرِّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا ياناركونى برداً وسلاماً على إبراهيم . وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين . ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين » .

صدق الله العظيم

هنالك انبسطت أساريرها ، وبان عليها الارتياح ، لكنها عادت فتجهمت وهمست تسألني فى خوف وشك :

– وهل ترين أنى أبلغ عند الله منزلة سيدنا إبراهيم الخليل ؟ فأبَيْتُ عليها أن تيئس من رَوْح الله ، ثم هممت بالقيام معتذرة بأنى من قومى على موعد ، كى نسعى إلى « أحُد » ثم إلى « قُبَاء[1] » قبل أن ترتفع الشمس وتلتهب الصخور والرمال .

فتوسلتْ إلىّ أن أبقى هنيهة ، ريثما تقص قصتها علىّ :

* * *

نشأتْ فى بلاد المغرب الأوسط ، بدويةً حسناء ترعى الغنم . ومات أبواها وهى صبية . فكفلها أقارب لها غلاظ الأكباد . لم يكادوا يرونها تتفتح للربيع ناضجة الجسم رطبة العود ، حتى ركبهم الهمُّ واستحوذ عليهم القلق ، فهم يترصدونها نائمة صاحية ، ويتعقبونها بالليل والنهار ، يحصون عليها أنفاسها ويؤولون حركاتها وإشاراتها ، ويتبعون مواقع نظراتها ومواضع خطواتها ، ويصغون إلى ما قد يَندُّ عنها من هذر الأحلام فى غفوة النعاس أو غشية الحمى .

وسألتهم أن يرحموها بالخباء فلم يفعلوا ، إذ لم تسعف عليه بيئتهم وهم بدو من فقراء الرعاة . وهكذا استقبلت ربيع العمر فى ظلّ رماح مشرعة ، تنتظر بها نظرة شاردة أو ضحكة ناعمة ، كى تمزق بدنها وتبعث به إلى القبر : أكرم مأوى للأنثى فى شرائع البداة الجفاة !

ولم تكن تدرى كيف تنأى عن مواطن الشبهات الظالمة ، فقد بدا أن قومها لم يكن يُرضيهم منها أىُّ حال :

إن وجمتْ ، قيل محزونة أرهقها الانتظار ، وإن ابتسمتْ قيل عاشقة لقيتْ الحبيب !

إن مرضت قيل مجفوة أضناها الهجر ، وإن صحّت قيل راضية صفا لها الحب !

إن نامت قيل حالمة تهفو إلى لقاء طيف المحبوب ، وإن سهرت قيل مسهدة جفاها الرقاد !

إن تجملت قيل فاجرة تتهيأ للقاء ، وإن أهملت زينتها قيل ضالة رحل عنها من تهواه ! !

[1] قباء : قرية على بعد ميلين جنوبى « المدينة » على يسار القاصد إلى مكة . نزل بها الرسول ﷺ فى هجرته التاريخية ، وبنى بها أول مسجد فى الإسلام .

وأنهكت هذه الحياة أعصابها حتى أوشكت أن تصاب بخبال ، فدعوا لها ضاربى الرمل وقارئى الكف ، كى ينزعوا منها قهراً ذلك السر الأثيم الموهوم الذى تكتمه . وما كان سرها سوى هذا الصبا الريان الذى تفتح برغمها وازدهر . .

وحين أعياهم أمرها ، زعموا أن لها عاشقاً من الجن ، فاستحضروا الرقاة وضربوا الدفوف كى يبرئوها من مس الجان ، وما كان الذى بها سوى اللمسة الساحرة من فورة الربيع وحيويته الدافقة . .

* * *

ثم كان لهذا العذاب آخر . . .

أو هكذا ظنت وظنوا . .

زوجوها من أحد شيوخ القبائل المسنين ، فأراحوا أنفسهم من لعنة الشك وأراحوا فتاتهم من محنة الترصد ، وطاب لهم ولها أن يئدوا ربيعها المسئول عن كل ما لقيتْ ولقوا ، وأن يلقوا عليه ركاماً من ثلوج الشتاء ، تُخمد جذوته المتقدة وتذهب بعبيره الفياح !

لكنها راحة لم تطل . . .

فما كادت تضع وليداً جميلاً فى العام الثانى من زواجها حتى حامت الظنون حولها من جديد ، وكانت عشيرة الزوج هى التى أساءت فيها القول ، وكأنما كرهت أن تذهب هذه الصبية الغريبة وولدها الرضيع ، بمال شيخهم الهالك . واستطاع الزوج أن يحميها من ظلم العشيرة ويرد عنها أذاها ما عاش ، فلما مات أمسكت القبيلة عنها ولدها ، وسرَّحتها إلى قومها وحيدة خائبة ، تندب زوجَها فى الأموات وولدَها فى الأحياء !

ولم يحسن قومها استقبالها وهى تعود إليهم ذليلة مطرودة ، فأقامت بينهم ما أقامت كسيرة القلب والطرف ، تقضى النهار كله عاملة كادحة ، فإذا جن الليل انتبذت من مسامر الحى مكاناً قصيًّا وانطوت على أحزانها تجترها فى شجن صامت . .

حتى وفد على الحى ذاتَ ليلة ، وافد غريب جاء من ديار بعيدة يسعى فى طريقه إلى الحجاز ، وقد كلَّت قدماه من طول السُّرى فنزل بالقوم يلتمس القرى ريثما يريح بدنه المجهد ، ثم يعود فيضرب فى الأرض ساعياً إلى بيت الله . وأمضى فى ضيافة القوم ثلاث ليال لم يكف خلالها عن التغنى بشوقه إلى زيارة الرسول وحنينه إلى الروضة الشريفة . . هناك حيث ينسى المرء همومه وأحزانه ، ويجد نفسه فى جوار النبى الحبيب عليه الصلاة والسلام .

وأخذتْها عيناه فى كل ليلة ، وهى تصغى إليه من ركنها المنزوى ، فرقَّ قلبه لهذا الربيع الحزين وذاك الحسن الذابل . ولما عرف قصتها دعاها إلى أن تلوذ بالحرم الأمين لتلقى هناك أحمالها ، فاستجابت للدعاء دون تردد ، وتشبثت بالرحيل معه ضارعة إلى قومها متوسلة ، مستعينة بالله على من يصدها عن سبيل الله .

قيل لها : لكن الإسلام لا يأذن لك بالحج إلا فى صحبة رجل من محارمك .

فكادت تيئس لولا أن تقدم الرجل الغريب يطلب يدها ، وقد راقت فى عينيه وطاب له أن يتخذها تُهوّن عليه مشقة المسير ووحشة المسرى . .

ثم انصرف بها يبغيان مكة المكرمة . ومن ثمَّ إلى المدينة المنورة !

* * *

تبعت زوجها مشوقة هائمة ، تريد أن تشكو إلى الله بثَّها وحزنها وتنفض فى ساحة الحرم همومها وأوجاعها . وقد هون عليها ذلك ، كلَّ ما لقيت من عناء السفر ووعثاء الطريق ، وكلما نال منها الإعياء وأوشكت أن تتهاوى دون الغاية ، تراءت لها القبة الخضراء من بعيد ، فدبت القوة من جديد .

وبلغت غايتها وفيها رمق من حياة ، فأسندت كيانها المتداعى إلى الحرم المبارك ، فرُدَّت إليها الروح ، ورفعت رأسها إلى السماء مبتهلة داعية .

وكانت تظن أن رحلتها ذات رجعة ، وأنها سوف تثوب إلى ديارها بعد أن تقضى من الأراضى المقدسة وطراً . لكن زوجها أنبأها عقب وصولها إلى « المدينة » أن لا رجعة ولا إياب ، بل المقام فى دار الهجرة حتى أوان الرحيل إلى الدار الآخرة .

ومضى عام فى إثر عام ، وهى تغدو إلى الحرم النبوى مع مطلع الفجر ، فتقيم به نهارها وقطعةً من الليل ، ثم تأوى كارهة إلى قاعة صغيرة فى « حارة الأغوات » حيث ترقد منصرفة عن زوجها ، لا تكاد تبادله حديثاً .

لقد شعرت بغتة أن كل ما بينها وبين هذا الرجل قد انتهى منذ استقر بها المقام فى المدينة المنورة . وكانت تؤول هذا الشعور بأنها ما تزوجته إلا لكى يُؤْذَنَ لها فى المسير إلى البقاع الطاهرة ، ثم تعود إلى بلاد تُظِلُّ ولدها . أما وقد جاء بها إلى « المدينة » إلى غير عودة ، فليَدَعْها إذن إلى جوار الرسول ، فما لها فى غربتها ملاذ سواه !

لكنها فى أعماقها كانت ترى هذا الزوج مسئولا عما تعانى من جهد الشوق إلى ولدها : أو لم يزين لها الزواجَ على غير هواها ، ويَعِدها السلوَّ والنسيان ؟

أو لم يزعم لها أنه قادر على أن يبدل حياتها الحزينة بأخرى لا تذوق فيها خوفاً ولا شجناً ؟ ما بال شوقها إلى ولدها يستعر لظاه حتى ما يهدأ لها بال ولا يقر لها قرار ؟ !

ما بالها لا تكاد عينها تقع على صاحبها حتى يثور بها لاعجُ الحنين إلى ابنها النائى ، فتجد لهذا الحنين مثل لفح النار ولذع الجمر؟

وكأنما وجدت أخيراً مَنْ تَحمل عليه إصرَ ما لقيتْ فى حياتها الشقية منذ مات أبواها ، ومَنْ تأخذه بذنب الذين اضطهدوها وسرقوا صباها ثم سرقوا ولدها ، دون أن تجرؤ على الشكوى أو الاحتجاج !

واستشعرت لذلك نوعاً من الرضى ، ووجدت فيه منفذاً لقهرها المكبوت وأشجانها الراقدة ، فراحت تسأل صاحبها عن صباها المضطهَد ، وربيعها الموءود ، وأمومتها المحرومة المعذبة !

وكان الزوج يلقى ثورتها مستخفًّا بها ساخراً بأحزانها ، فلما استمرأت طعم التمرد عليه لم يجد إلا العصا أداة لتأديبها وزجرها فكانت تهرب من الدار طولَ النهار مستجيرة بحمى الحرم الأمين ، فما تكاد تدخل من « باب جبريل » القريب من مسكنها حتى تنسى عدوَّها ، وتستغرق فى صلواتها ودعائها ، ضارعة إلى الله أن يجمعها بولدها ، أو فليطفئ برحمته وقدرته ، هذه النار التى ترعى أحشاءها وتشوى كبدها . .

* * *

وتنفس الصبح وأنا فى مجلسى أصغى إلى حديثها المر ، حتى إذا أفرغت شكاتها ونفست عن شجونها ، أطرقتْ صامتة خاشعة ، وبدا لى أنها قد انصرفت عنى تماماً ، فألقيت عليها نظرة رحمة ، ثم قمت أخطو وئيداً فى ساحة الحرم ، رانية إلى أسراب الحمام التى تمرح هناك آمنة لا تُراع !

المدينة المنورة ١٥/٢/١٩٥١

هاجَر

« إن الصَّفَا والمروةَ مِن شعائرِ الله فمَنْ حجَّ البَيتَ
أواعتَمَر فلا جُناحَ عليه أن يَطَّوفَ بهما ، ومَن
تطوعَ خيراً فإن الله شاكرٌ عليم » .
صدق الله العظيم

انطلقت بنا السيارة من « جدة » مسرعة ، تريد أن تبلغ بنا « مكة » قبل أن يدركنا الليل ويلفنا الظلام . وقد أخذتنا شبه غفوة حالمة ونحن نحدق فى الجبال الصخرية التى تحف بجانبى الطريق فى شموخ ، وأشعة الغروب تلق ظُلة رقيقة من ضوئها الشاحب على القمم الجرداء ، ثم تنساب فى رفق على السفوح العارية التى أرهقها قيظ النهار.

وأوشكت السيارة أن تتم سبعين كيلومتراً ونحن لا نرى على الأفق سوى الجبال الصم والتلال المتراكبة والأودية الضيقة المفروشة بالحصى والرمال .. ثم لاحت لنا « مكة » فجأة من بين الفجاج ، فلم نتمالك أن هتفنا من أعماق قلوبنا فى ضراعة وابتهال :

« لبيك اللهم لبيك ... »

ورددت البطاح أصداء هتافنا ، فخيل إلينا أن الوادى قد امتلأ بحشود المسلمين الأولين ، تتدفق من ناحية الشمال لتدخل « مكة » فاتحة ملبية ، وعلى رأسها « القصواء » ناقة الرسول ، تعود إلى البلد الحرام بعد أن تسللت منه خفية إلى دار الهجرة قبل ثمانى سنين ، ناجية بصاحبها ﷺ ، من كيد طواغيت المشركين ومطاردتهم الشرسة . . .

* * *

وطفنا بالكعبة سبعاً ، ثم خرجنا نسعى بين الصَّفا والمروة حتى إذا أتممنا المسعى جلستُ على دَرَج المروة ، تجاهَ الوادى ، وقد طاب لى حينذاك أن أعتزل الصحبَ زاهدةً فيما شُغلوا به من حديث .

ولم أكن حتى تلك اللحظة ، أفكر فى شىء سوى هذا التاريخ الرائع الممتد الذى صنعه أمىٌّ يتيم ، شهدته بطحاء مكة يرعى الغنم ، أو يخرج من القوافل أجيراً أميناً لبعض أثرياء التجار من قريش . ثم اصطفاه الله رسولاً ، فما مات حتى وطئ بقدميه أصنام الكعبة ،

وشهد بعينيه راية الإسلام تخفق على كل بقعة فى أرض العرب ، وسم بأذنيه « بلالاً » ينادى من فوق سطح الكعبة : « الله أكبر » ، فيستجيب له بالجزيرة مئات الألوف ممن دخلوا فى دين الله أفواجاً . .

أجل ماكنت حتى تلك اللحظة التى أتممت فيها المسعى ، أفكر فى شيء سوى هذا التاريخ المجيد الذى صنعه أمىّ يتيم ، هاجر من بلده ذات مساء مع صاحب له شيخ مُسنّ ، فما مضى على هجرته ربع قرن حتى كانت دعوته تزلزل عروش الأباطرة والأكاسرة ، وتدك حصون الطغاة والجبابرة . .

غير أنى لم أكد أجلس على درَج « المروة » الصخرى وأرى الساعين يهرولون أمامى داعين مكبرين ، حتى توارت عنى مشاهد ذاك التاريخ الإسلامى ، ولم أعد ألمح سوى طيف « هاجر » وهى تهرول فى هذا الوادى باحثة عن قطرة ماء لتروى غلة طفلها الغالى « إسماعيل » :

خرجت به من خيام أبيه إبراهيم – عليه السلام – طريدة منبوذة ، كلُّ ذنبها أنها رُزقت غلاماً ، وسيدتُها « سارة » ، امرأة إبراهيم ، عاقر عقيم ! وما كانت « هاجر » هى التى سعت إلى إبراهيم أو أغرته بالزواج منها لتهبه ولداً ، وإنما أذنت السيدة « سارة » بذلك فى لحظة يأس ، ورضيت أن تشركها جاريتها المصرية فى زوجها . لعل ذلك يروى غُلته ويهدئ من شوقه الطاغى إلى الأبناء ! ولعلها ما أذِنتْ بذلك إلا وهى ترجو ألا تثمر التجربة ، فيكفَّ الزوج عن ذكرِ الولد ، ويئد فى أعماقه أمل الأبوة المحرومة الراجية .

لكن التجربة لم تخفق ، وشاء الله أن تحمل « هاجر » فأحست السيدة العاقر لذلك مرارة كادت تفسد عليها حياتها ، وخُيل إليها أنها صغُرت فى عينى جاريتها ، فشكتْ ذلك إلى زوجها قائلة :

– ظُلمى عليك ! أنا دفعتُ جاريتى إليك فلما حملتْ صغُرتُ فى عينها ! يَقضى الربُّ بينى وبينك .

قال إبراهيم :

– هى ذى جاريتك فى يدك ، فافعلى بها ما يحسن فى عينيك .

فلم تكد سارة تظفر بهذا التفويض من زوجها ، حتى أسرفت فى إذلال هاجر إلى أن هربت منها وهامت على وجهها فى البرية ، ثم عادت بعد حين فوضعتْ فى حِجرْ إبراهيم ولدَه إسماعيل .

ولم تطق سارة على ذلك صبراً ، فمازالت بإبراهيم تحضه وتغريه أن يطرد هذه الجارية وابنَها ، وهو يتردد مشفقاً . ثم استجاب لامرأته آخر الأمر ، ومضى بهاجَر منطلقاً من خيامه ، وراح يضرب فى الصحراء وهى تسير من ورائه صامتة مستسلمة ، متشبثة بوليدها الرضيع ، لا تكاد تفكر فى شىء إلا فى نجاتِها به . . .

* * *

وأبعد إبراهيم فى السير حتى بلغ أطلال البيت العتيق وسط المهمَه القفر ، فوضع هناك هاجرَ وإسماعيل وترك لها جراباً فيه تمر ، وسقاءً فيه ماء . ثم انثنى ليعود من حيث جاء . وتلفتتْ الأم حولها فأفزعها القفر الموحش لا أثر فيه لحياة ، وجرؤت على أن تخطوَ وراء السيد لتسأله مسترحمة :

– أين تمضى وتتركنا بهذا الوادى المقفر حيث لا ديَّار ولا نافخ نار ؟

فلم يجب . .

وأعادت سؤالها مرة ، واثنتين وثلاثاً ، وهو منصرف عنها صامت لا يجيب !

ولم يبق لها من بعد ذاك إلا أن تتساءل :

– آلله أمَرَكَ بهذا ؟ !

وعندئذ أجاب إبراهيم : نعم .

ولم يزد . . . .

قالت هاجر : إذن فالله لا يضيعنا . . . (١)

ورجعت إلى موضعها الأول عند أطلال البيت ، على حين مضى هو فى طريقه لا يلتفت ، إلى أن غيَّبته ثنِيَّة الوادى فاستقبل البيتَ العتيق بوجهه ودعا ربه فى خشوع :

« ربَّنا إنى أسْكنتُ مِن ذُريتِى بواد غيرِ ذى زَرع عندَ بيتكَ المحرَّم ، ربَّنا لِيقيموا الصَّلاة ، فاجعلْ أفئدة مِن الناس تَهوِى إليهم وارزقْهم من الثَّمرات لعلهم يَشكرون » .

واستأنف مسيره راجعاً . . .

* * *

وخيَّم على الفلاةِ صمتٌ مرهق لم يلبث أن مزقه لهاث أُمٍّ عطشى ، وصياح رضيع جائع جفَّ النبعُ الذى يغذوه ويرويه .

(١) مستخلص من (التوراة) و (تاريخ مكة) للأزرقى . أما القرآن الكريم فلاى يتعلق بتفصيل القصص ، تركيزاً على جوهر الموقف ومناط الاعتبار .

لقد نفد الزاد القليل الذى فى الجراب ، وكذلك نفد ما فى السقاء ، وتلاحقت صيحات الصغير وبدأ يتلوى من ظمأ وجوع ، فتركتهْ أمه وانطلقت تبحث له عن قطرة ماء . .

وحملتْها قدماها إلى جبل « الصفا » هناك ، فصعدت فوقه لتشرف من عَل على الوادى ، راجيةً أن ترى إنساناً أو أثراً لحياة ، فلما لم تر إلا الخلاء المقفر ، هبطت إلى الوادى وهرولت حتى أتت « المروةَ » فعرَّجت على السفح لعلها ترى أحداً ، ولا أحد . .

وظلت هكذا تهرول من هنا إلى هناك ، ساعية بين الصفا والمروة . مرتين ، وثلاثاً ، وخمساً ، وسبعاً ، حتى نال منها الجهد وأشرفت على الهلاك من ظمأ وإعياء . فتهالكتْ على الصخور منهوكة القوى لا تجرؤ على الدنو من صغيرها المعذب .

وإذ تناهى إليها أنينه ، وغطَّت رأسها بلفاعها كيلا ترى ولا تسمع فقد كان سماع حشرجته وهو يحتضر ، ورؤيته وهو يموت ، أقسى مما تحمله بشريتها أو تطيقه أمومتها !

* * *

ووجمت السماء حيناً وهى تطل على المشهد الفاجع : مشهد رضيع يهلك ظمأ وأم تأبى أن تتزود منه بنظرة وداع ، بل تصد عنه وبها من اللهفة عليه مثل الجنون !

وتجهمت الصخور وهى تردد صدى صوت الأم الواهن : « لا أنظر موت الولد » مختلطاً باللهاث والأنين ، وبدا كأن شبح الموت يلقى على الوادى ظلاله الكئيبة وهو يدنو من الطريدين المعذبين ، لينتزع منهما الخفقة الأخيرة من الحياة !

لكن شعاعاً من رحمة الله لاح بغتة أمام « هاجر » فزحفت إلى حيث هداها الله ، وثمَّ . . . ألفت نبعاً يفيض ماء !

وأكبَّت عليه تغرف منه ، حتى إذا رُدّتْ إليها الروح أحست باللبن يملأ ثديها ، فألقمتْه طفلها المشرف على الهلاك .

ودبَّت الحياةُ فيه من جديد ، وعاش ليعمرَ هذه البقعة المقفرة ببنيه وأحفاده .

واستجاب الله لدعاء إبراهيم فإذا أفئدة من الناس تهوى إلى الوادى غير ذى الزرع ، وإذا النبع – بئر زمزم – يجذب القوافل فى آثار الرعاة ، فتغدو « مكة » على مر السنين المركز الرئيسى للتجارة فى شبه الجزيرة .

عاش إسماعيل ليرفع هو وأبوه القواعد من البيت العتيق ، فيكون قبلة أنظار العابدين فى شتى أقطار الأرض ، ومهوى أفئدتهم فى كل حين ، يحجون إليه من الشرق والغرب ،

ومن الشمال والجنوب ، ليطوفوا بالبيت ويسعوا مهرولين بين « الصفا والمروة » حيث سعت « هاجر » مهرولة من زمن موغل فى القدم ، تبحث لوليدها عن قطرة ماء .

وهذه هى بئر زمزم ، ماتزال فى مكانها قريباً من قبر هاجر ، يتزاحم عليها الحجيج ليظفروا من نبعها بجرعة مباركة ، كتلك التى رَدّت الروح إلى أم هالكة ، ورضيع يحتضر !

* * *

ياله من تاريخ ! . .

إن جهاد أم فى سبيل وليدها ، قد تقبلته السماء عبادةً وقربى ، فجعلت من تلك القصة الإنسانية المؤثرة للأمومة ، سِفْراً يتلى فى « الكتاب المقدس » وجعلت من دعاء إبراهيم آية منزلة فى « القرآن الكريم » . . .

وكان مسعَى هاجر وهرولتها بين الصفا والمروة سبعة أشواط ، عزيزاً على الإسلام ، كما كان عزيزاً على الأجيال من قبله ، فدخل فى الشريعة الإسلامية شعيرة من شعائر الله فى الحج والعمرة .

وظلت قصتها ملء التاريخ الدينى ، على مر الزمان .

وماكانت « هاجر » سوى أمة طريدة مضطهدة ، نُبذت مع وليدها بالعراء فى الفلاة الموحشة ، بوادٍ غير ذى زرع .

لكنها أم !

وكانت تلك الأمومة حسبها عبادة وقرباناً ! !

مكة المكرمة : ١٩٥١/٢/٥

آمنة

« إلى التى عجز الرق عن استعباد قلبها ووأد
إنسانيتها ، وإقناعها بأن لا حقَّ لها فى معاناة
عواطف البشر ، تحيةٌ ، ورثاء . . » .

بلغنا فى رحلتنا بجزيرة العرب منطقة البحرين فى أقصى الشرق ، وبدا لى أن أزور بعض العربيات الأصيلات ، المحجبات وراء أسوار منيعة من الأعراف والتقاليد . فصحِبَتْنى صديقة كريمة إلى بعض من تعرف من سيدات القوم .

وحملتنا السيارة إلى دار صاحبة لها هناك ، فسعى خادم بين أيدينا عبر ممر طويل يُفضى إلى فناء داخلى ، تُفْتَح عليه قاعةُ الاستقبال للحريم ، بعيداً عن الطريق العام .

وألفينا فى استقبالنا شابةً مليحة سمراء ، قد اتكأت على إحدى الحشايا المنسقة فوق السجاد العجمى . فنهضت لتحيتنا ، ثم جلست قريباً من الباب ، وعلى وجهِها ظل ابتسامة نحيلة متعبة .

قالت صاحبتى تقدمها إلىّ : امرأة السيد .

ثم التفتت إليها قائلة :

– ما شاء الله يا آمنة ! أراك بصحة وعافية ، وكنت لما لقيتُك آخر مرة ، عليلة تشكين .

فلاح على وجه « آمنة » ما يُشبه التساؤل ، وقالت لصاحبتى :

– كذا ترينى ياست ؟ حمداً لربى ، أنا بخير ما بقيت فى هذى الدار .

قالت لها السيدة :

– ولكن دارك غير بعيدة فيما أعلم .

فانتفضت « آمنة » وهى تقول فى انفعال غاضب :

– ما أعرف لى داراً غير هاذاكَ المكان ، وليس لى فى سواه مأرب ، ولا لى عنه منصرف ، حتى الموت !

وصمتنا لحظة ، ثم عادت صاحبتى تسأل :

– وزوجك يا آمنة ؟ .

قالت الشابة وفى نظراتها مزيجٌ من الرعب والاحتقار :

– ذاك المخلوق البغيض ؟ ! ما عاد لى به شأن . طلقنى منه سيدى ، له الشكر ولله الحمد .

وكنت أتتبع هذا الحوار وأنا أعجب لما أسمع : أو لم تقل صاحبتى إن آمنة امرأة السيد ؟ فما هذا الحديث العجيب عن دار أخرى وزوج بغيض ؟ وما مكانُها من هذا البيت إذن ؟ وفيم تشبثها به إن لم تكن ربته ؟ وكيف يُطلقها السيد من زوجها ؟ ومن يكون الزوجُ إن لم يكن السيد ؟

ولحظتْ صاحبتى ما أنا فيه من حيرة فتبسمت ضاحكة تقول :

– لا يدهشك ما سمعت . أصل الحكاية أن « آمنة » عاشت مع السيد سنين عدداً ، زوجة جارية . ثم تزوج أخيراً من إحدى حرائر « المدينة » وزوَّج آمنة من صانع أجير ، أعجمى غريب . ويبدو أن آمنة لم ترض عن هذا الزواج ، فعادتْ إلى بيت سيدها ، وهذه هى تقول إنها لا تبغى عنه حِوَلا .

رددت آمنة فى إصرار :

– هو ما سمعت : لن أتحول عن هذى الدار إلا إلى القبر . لقد أخرجونى مرة كرْهاً ، ولن يخرجونى منها ثانية وفىَّ نَفَس ! أعرف أنى جارية ، أمةٌ . مُستَعْبدة ، ليس لى أن أرغمهم على بقائى هنا ، لكنى أعرف أيضاً أنى لن أطيق الخروج ، ولن أُرغَم عليه حيَّة ، فليقتلونى إذا شاءوا ، أو . . . !

وبترت حديثها بغتة ، إذ دخلت السيدة ، فى تلك اللحظة لتحيي ضيفتها وانكمشت « آمنة » فى مكانها تلقى على السيدة وعلينا نظرات طويلة ، بدون أن تنبس ببنت شفة .

ونظرتُ أنا إلى السيدة : عروس فى ريعان الصبا ، رقيقة ناعمة ، أنيقة معطرة ، تميس فى دلال وزهو ، وقد رشقَت زهرتين فى شعرها الفاحم المتموج ، وارتدت ثوباً من « الدانتلا » البيضاء ، وازَّينتْ كأنها تتهيأ لجلوة العرس !

وجىء لنا بالشاى والفاكهة فأصبنا منهما ما اشتهينا ، ودار بيننا حديث هين عن دنيا النساء .

وعلمتُ أنها من بنات « المدينة » وقد أمضت فيها طفولتها وصباها ، لم تخرج منها قط إلا مرة واحدة منذ ستة أشهر ، يوم جاء زوجها فحملها بالطائرة إلى ساحل الخليج .

ولما سألتها إن كانت أشفقت من ركوب الطائرة ؟ أجابت فى مرح :

– هبينى أشفقتُ ، فماذا بالله كنت صانعة ؟ إن الرحلة من المدينة إلى مكة على ظهور الإبل ، تستغرق عشرة أيام ، فما بالك بالرحلة إلى نجد فالأحساء ؟ هل ترينها نزهة طيبة لعروس لم تبرح « المدينة » قط ؟

فضحكنا جميعاً إلا آمنة ! قالت وهى تعبث بخيوط لفاعها :

– أما أنا فما استطعتُ . سألنى سيدى أن أصحبه إلى المدينة يومَ طار إليها ليأتى بالسيدة العروس ، فرجوته أن يعفينى من هذه الرحلة ، إذ أنى أخاف ركوبَ الجو . . .

وصمتَتْ بعد ذاك فلم تقل شيئاً ، حتى قامت السيدة لبعض شأنها فاستطردتْ « آمنة » قائلة وهى تنظر إلىَّ :

– تالله ياستى ما كان بى من خوف ، وإنما ضعفتُ فكرهتُ أن أشهد بعينى جلوة العروس .

فسألتها صاحبتى :

– وأى شىء فى ذلك يا آمنة ؟ قسمة ونصيب ، وقَدَرٌ يجرى عليك وعلى مثيلاتك ، أفما كنت تتوقعين أن تدخل هذه الدارَ سواك ؟

أجابت فى بطء :

– أجل توقعتُ ذلك . . وتوقعتُ أن يلفظنى هذا المكان على غير رغبتى وهواى ! ويالى من حمقاء ! أقول رغبتى وهواى ، وإنى لأعلم أن ليس لى ولمثيلاتى حق الرغبة والهوى ! ! لكنه الضعف ، فاغفرا لى . .

وقلت وأنا أحادق فى عينيها :

– لا حاجة بك يا آمنة إلى الاستغفار ، فما أثمتِ ولا أذنبتِ . إنى أفهمك يا أختِ ، كما أُفهم نفسى .

فوجمت لحظة كأنها لا تصدق أذنيها ، على حين مضيت أقول :

– ولم لا يا آمنة ؟ أليس لك عواطفُ أنثى وطبيعة بشر؟

أو لم تلدك أمك مخلوقة سويةً من الفصيلة الآدمية التى ننتمى إليها ؟

فتهلل وجهها غبطة ، وامتلأت عيناها بالدموع ، لكن وجومها عاودها بعد قليل فتنهدت قائلة :

– لست واحسرتاه أعرف أبوى ، غير أنى لا أفتأ أتمثلنى وليدةً فى حضن أم ! وكلما

رأيتُ طفلاً يُسلم نفسَه إلى صدر أمه ويغفو هانئاً بين ذراعيها ، هاجت شجونى وقلت لنفسى : «كذلك كنت من قبل ! » ثم يشدُّنى واقعى فأرانى ولا أمَّ لى ! نسج الزمان بينى وبينها حجباً كثيفة لا ينفذ منها شعاع ولا يبدو من ورائها شىء .

وأمسكتْ عن الكلام ريثما دخلت السيدة وأخذتْ مكانها بيننا فاستأنفت « آمنة » حديثها قائلة لى :

– سمعتك ياست تتحدثين عن رغبتك فى زيارة أحياء البلدة . لو شئت لأذنت لى فى صحبتك الآن ، ولن تستغرق رحلتنا سوى ساعة أو بعض ساعة .

فأدركتُ على الفور أنها تريد أن تنطلق معى خارج الدار ، لتفضى إلىّ بهمومها .

ولم أتردد ، بل استأذنت مضيفتى وصاحبتى ، وخرجتُ مع آمنة .

وتركت لها أن توجه سائق السيارة إلى حيث تبغى ، فانطلقت بنا إلى الخلاء ، على حافة الصحراء .

وقادتنى إلى مكان منعزل بين كثبان الرمال وراء جبل الظهران ، ثم راحت تكمل رواية المأساة :

* * *

لم تعرف عن نشأتها الأولى سوى ذكرى غامضة لطفلة غريرة لاهية ، ضلَّت طريقها إلى أمها فى زحام كبير لا تدرى اليومَ إن كان زحمةَ سوق أو احتفالا بعيد . وألفَتْ نفسها بعد أيام تعبُر البحر على ظهر سفينة كبيرة ، ثم تُسلم إلى رجل غريب يمضى بها على راحلته فى سفرة عبر الصحراء ، استغرقت نحو أسبوعين قبل أن تلقى بها فى « مدينة الرسول » لتعيش هناك أعواماً ، وتتلقى الدروس الأولى فى مدرسة الرق وسوق العبيد ! !

ولم تكن الدروس فى مبدأ الأمر شاقة ولا مرهقة ، فقد اكتفى السادة من الوليدة بأن تلاعب صبْية الدار ، وأن تلازمهم كظلهم أقاموا فى البيت أو انطلقوا إلى الملاعب . وكان طعم الحياة هكذا سائغاً مقبولاً ، فإن السادة الصغار لم يكونوا يجدون حرجاً فى أن تشاركهم اللعب ، أو يرون فيها غيرَ رفيقة صباً وزميلة ملعب . حتى شبت وشبوا ، فإذا بها تنتزع من بينهم . وتُدْفع إلى قوم غرباء ، يرحلون بها من جديد عبر البيد والقفار . . .

وعبثاً حاولتْ أن تبقى مع من حسبتهم قومَها ، وعبثاً حاول أترابها أن يحملوا أهلهم على الإبقاء عليها ، فقد بدا كأن الأمر مقرر لا يحتمل مناقشة أو رجاء ! ولما حانت ساعة الرحيل تمهلت الصبية عند باب الدار تريد أن تملأ عينيها من منزل صباها ورفاق حداثتها ، فحالت

الدموع بينها وبين ما تريد . هنالك اندفع فتى من الرفاق يهتف بها ألا تحزن ، فإنه ماض معها إلى حيثُ يُسار بها !

وأشرقت أساريرها بعد تجهم ، على حين مضى الصبى يستأذن خالته فى السفر — وكانت أمه قد ماتت قبل عام ، وجاءت أختها فشغلت مكانها من الدار .

ولم تكد الخالة تسمع حديثه عن رغبته فى مرافقة الوليدة حتى قهقهت ضاحكة ، ثم تطوعت فألقت عليهما درساً فى الفارق الرهيب بين السادة والعبيد .

وكانت تلك هى المرة الأولى التى تسمع فيها الفتاة أن من البشر ما يباع ويشرى ، دون أن يكون له من أمره شيء ، أى شيء !

وأدركت أنها من هذا الجنس المنبوذ الذى لا أهل له ، ولا وطن ، ولا أمس ، ولا يوم ، ولا غد . .

وعراها وجوم ذاهل ، فاستسلمت لما يُراد بها فى ذلة ، واستقبلت طريقها المجهول دون أن تلق كلمة وداع للسيد الصغير الذى أعجزه أن يحميها من مصيرها المحتوم ، فانثنى يبكى لها ، وعليها . . .

وأعفاها ذهولها المباغت من وطأة الإحساس بالمحنة ، أو لعل وضعها الأليم قد ألغى حقها فى مثل هذا الإحساس .

* * *

حتى إذا عاودها وعيها بعد أيام ، تلفتت وراءها تلتمس أطلال عالمها الماضى ، فلم تجد سوى الصحراء الممتدة إلى غير مدى : غامضة كئيبة ، موحشة جرداء . .

وعادت تنظر أمامها متسائلة عن المصير المنتظر ، فلم تجد سوى المتاهة الضالة العمياء !

وتناهى إليها فى تلك اللحظة ، صوتُ حادى القافلة يَعِد الإبلَ الرِّى والراحةَ بعد الرحلة المجهدة ، فطاب لها أن تبكى . لكن نظرة صارمة من وجه المشترى الغريب ، أمسكت الدموع فى مقلتيها .

وتمنت آنذاك لو أنها ناقة فى القطيع ! إذن لوجدتْ إلى جانبها من يحدوها فى رفق ، ويغنى لها فى حنان ، ويَعِدُها الراحة والظلَّ والرى . . .

وهنا لم تقو « آمنة » على المضى فى الحديث ، فتركتُها تبكى . حتى إذا أراحها البكاء استأنفت الكلام قائلة :

« ظلت القافلة تضرب فى البيداء أياماً وليالى حتى أشرفت على إحدى القرى ، وآن لنا أن نحط الرحال .

وقادنى الغريب إلى دار رحبة ، حيث أسلمنى إلى سيد كهل هناك ، فتفرس السيد فى وجهى حيناً ، ثم أسلمنى بدوره إلى القائمة على شئون الدار .

وبدأتُ عهداً جديداً ، شتان ما بينه وبين العهد الذى كان .

بدت لى الدار موحشة خراباً على الرغم من ضجيج النسوة اللواتى كن يملأنها . لأنى افتقدت فيها الصبية والأطفال ، وألفيتنى أعيش وسط جمع متناكر من النساء !

كن أربعاً ، متفاوتات السن ، مختلفات السحنة واللون ، لكنهن متماثلات فى الزى والمظهر والمستوى ، وقد حسبتهن زوجات السيد ، لكنى ما لبثت أن عرفت أنهن جميعاً من الإماء ، جاء بهن السيد واحدة بعد أخرى ، يرجو أن تلد له إحداهن ولداً ، فلم يحقق الله الرجاء .

وكانت هناك خامسة ، سبقتهن جميعاً إلى بيت السيد ، ثم تقدم بها العمر فتُركت مكانها فى الحريم ، وتفرغت لخدمة الدار ، يعاونها جمعٌ من العبيد .

وإلى هذه الأمة الكهلة ، ترك السيد أمرى ، فقامت بمهمة إعدادى للمحل الذى ينتظرنى بين الجوارى الأربع .

ولم يستغرق هذا الإعداد سوى عام واحد ، ألفيتنى بعده أنفرد بغرفة خاصة إلى جانب الغرف الأربع ، وأحظى من دون الزميلات بأوفر نصيب من عناية السيد واهتمامه !

واستسلمت لحياتى الجديدة ، وقد أرضانى أن أكون موضع الغيرة والحسد ، فما عهدتْ الجوارى من سيدهن مثل تلك المعاملة الرقيقة التى أوثرتُ بها :

كنت إذا شعرت بوعكة ، حملنى السيدُ بين ذراعيه إلى فراشى وسهر على رعايتى ، يسقينى الدواء ، ويملأ غرفتى بأطيب المأكولات .

وكان إذا سافر ، عاد إلىَّ بادى اللهفة ، وملْأُ يديه غالى الهدايا من ثياب وحُلى وطيب .

وكاد هذا التدليل لينسينى أنى أمَة ، لولا بقية من المرارة كنت أشعر بها فى فمى كلما ذكرتُ اللحظة الرهيبة التى ودّعت فيها صباى الخلىّ ، ولُقِّنت الدرس الأول عن محنة الرق . . .

أجل ، كدتُ لأنسى . . لكن الزمان لم يسمح لمثلى بذاك .

سافر السيد يوماً إلى الشام حيث غاب أشهراً ثلاثة أرهقنى فيها انتظاره ، فتشاغلت بتصوُّر لهفته علىَّ ، حين يئوب من سفره مثقلا بشوقه ، وهداياه .

وقد آب من سفره . . .

وكانت هديته الواحدة إلينا جميعاً ، أمَة جديدة أنزلها المنزلَ الأول الذى كان لى ، وادخرَ لها ماكان يؤثرنى به من رعاية وتدليل !

وانزويت فى الدار مقهورةً أحاول أن أستسلم ، فما كان من حقى أن أثور أو أحتج ، أو أغضب ، أو أتألم !

حاولت أن أحتمل إذلال المحظية الجديدة وشماتة الأربع القديمات ، وأن أصغى إلى نصح صديقتى الأمة العجوز التى حرصتْ على أن تميت حسّى رحمة بى ، فما يجدى الألم فيما لا يدلنا فيه ولا طاقة لنا على تغييره !

أجل حاولت ، وسهرتُ الليالى فى كفاح أليم غايته أن أخنق بشريتى وأعطل مشاعرى ، حتى أفلحت فى أن أهيل فوق قلبى وروحى أكواماً من رماد المداراة والتصبر والاحتمال .

لكن هذه الأكوام انهارتْ بغتة ذات ليلة ، حينما رأت السيد فى غرفتى التى هجرها نصف عام !

وكان بيننا موقف أليم ، عنيف مثير : أصرَّ على أن أبقى حيث كنت ، كما فعلتْ زميلاتٌ لى من قبل . وأصررتُ على أن يبيعنى ليعفينى من العيش فى ذياك الجحيم . قال مهدداً :

– لو ظللتِ على عنادك ، بِعتُك لبعضِ الرعاة الأجلاف .

فهتفت به متوسلة :

– افعل ! افعل بالله . . إن العيشة الجافية الغليظة الخشنة فى مضارب البدو ، أجمل فى عينى من البقاء فى هذه الدار الرحبة ، رافلة فى حلل من حرير !

فاشترط لكى يفعل ، أن أكون له كما كنت من قبل : الأمة المطيعة الوديعة ، ريثما يختار لى من يشترينى ويدفع الثمن .

* * *

وجاء المشترى ، وكان شابًّا مهذباً من رجال الحكومة ، مرَّ بنا فى رحلة له إلى نجد ، وكنت أظن أن موقف الوداع هذه المرة أهونُ من سابقتها ، ولذلك عجبت حين شعرت

بشجن عميق يملأ نفسى ، لما قبلتُ يدَ سيدى للمرة الأخيرة ، وحييتُ صديقتى الأمَة العجوز ، ورفيقاتى اللواتى أحطن بى مودعاتٍ داعيات .

ولم أطق أن أطيل النظر إلى غرفتى التى تلقتْنى صبيةً غريرة ، وأخرجتْنى إلى الدنيا بعد ست سنين ، شابة قد شربت الكأس حتى الثمالة ، وبلت عيشة النساء ، واكتوت بنار الهجر والغيرة والقهر .

وذكرتنى رحلتى إلى « نجد » برحلتى الأولى من المدينة ، فلبثت أيام السفر صامتة حزينة ، وأشهد أن سيدى الجديد كان رفيقاً بى طوال الطريق ، لم يضق بوجومى وانقباضى ، بل تركنى أجتر أحزانى فى هدوء !

حتى حططنا الرحال فى « الأحساء » فأدهشنى ألا أجد فى الدار امرأة سواى .

واتخذنى سيدى صاحبةً له ، وزوجة . وربة بيت . فتفتح له قلبى المغلق ، وذقتُ لأول مرة طعم الحب ، واستمرأت حلاوة هذا الرق الجديد ، فانيةً فى السيد الحبيب ، وامتد بى هذا الحلم الهنىء حتى أتم سبع سنين . . .

ثم كانت اليقظة الفاجعة !

أنكر الناس على رُجلى أن يقنع بأمَةٍ عقيم ، وزيّنوا له أن يأتى بأخرى قد تُنبت البذرة التى عجز كيانى المجدِب عن إنباتها .

وكان لكلام الناس فى أذن سيدى وقع السحر ، فطار إلى « المدينة » وعاد بعروس من الحرائر ، حملت له البذرة المشتهاة ، ولم يهن عليه أن يبيعنى ، فأخرجنى إلى دار قريبة ، زوجةً لصانع أجير .

وحاولتُ هذه المرة أيضاً أن أستسلم لِقدرِى ، لولا هذا القلب الذى يخفق بين ضلوعى ، متشبثاً بالدار التى أظلتْنى سبع سنوات ، ومتعلقاً بالرجل الذى كان لى السيدَ والأب والأخ والزوجَ والحبيب !

قال لى سيدى : صبراً يا آمنة ، فقد تألفين العيش مع زوجك على مر الأيام .

لكن الأيام مرَّت والشهور ، وأنا أزداد نفوراً من هذا المخلوق ، واشمئزازاً ومقتاً .

هربت منه ثلاث مرات ، فكان سيدى يردنى إليه فى كل مرة ، ويوصينى بمزيد من الصبر والاحتمال .

حتى غُلب الصبرُ ونفد الاحتمال ، فأبيتُ على الزوج الكريه أن يمسنى . ولما حاول أن يُخضعنى بالقوة ، عدوتُ هاربةً فى جوف الليل ، ولذت بدارى الأولى ضارعةً إلى السيدة

أن تدعَني أعيش لها أمةً خادمة منبوذة ، أو فلتأمر السيدَ بانتزاع روحي من جسدى إذا شاءتْ ألا أبقى تحت سقف هذا البيت .

واستجابوا لى ، فكان الطلاق والخلاص . وتُركتُ حيثُ أريد ، مكتفيةً بأن أسمع صوت سيدى ، وأرى وجهه ولو من بعيد . . .

وذاك حسبي من دنياى . .

* * *

قلت لآمنة ونحن عائدتان إلى الدار :

– ترين يا آمنة ، لو وهبك السيد حريتك . . .

فلم تدعني أكمل العبارة ، بل قاطعتني فى مرارة :

– وماذا أفعل بهذه الحرية ؟ أى مكان لى على هذه الأرض إذا لفظتني الدارُ التي كانتْ لى يوماً جنة الحب ؟ ما انتفاعي بحياتي كلها ، وقلبي مصفَّد بأغلال رقِّه وهواه ؟

ثم صمتت ، حتى إذا اقتربنا من البيت أكبَّتْ على يدى تقبلها وهي تهمس :

– شكراً ياستى ، ألف شكر ! كنت كريمة إذ رأيت فينا معشر الإماء ، مخلوقات بشرية ذات قلوب ، وأصغيت إلى واحدة عجز الرق عن تعطيل حواسها وخنق عواطفها وإقناعها بأن لا حق لها فى الحس أو التألم ، أو الحب ، أو البغض .

وغابت « آمنة » عن عيني ، فلم أرها حتى هممت بمغادرة الدار ، وإذ ذاك لمحتها تخطو نحونا شاحبة متداعيةً ، ثم تقف بباب العربة لتقول :

– فى أمان الله . . .

الخبَر : جزيرة العرب ١٠/٢/١٩٥١ .

أصداء من الجزيرة

مِنْ بَعيد

أكتب هذا وماتزال ملء مسمعى أصداء آتية من بعيد ، لسمر أدبى ممتع ، ملأ إحدى أمسياتنا الحافلة فى شرق الجزيرة حين اجتمعنا بإخواننا علماء « القطيف » ، وأدبائها على ساحل الخليج .

* * *

كانت زيارتنا لهذه المنطقة النائية على غير موعد ، فما دار بخلدنا ونحن نتهيأ للسفر إلى جزيرة العرب ، أننا قادرون على أن نبلغ أقصى مشرقها . فى رحلة ضئيلة الزاد ؛ لولا ضيافة جلالة عاهل الجزيرة ، هيأت لنا أن نذهب حيث شئنا على متن الطائرة ، فطُويت لنا الأبعاد واستطعنا أن ننتقل من الحجاز إلى نجد فالأحساء فالخليج . . .

هنالك ذكرنا « القطيف » فيما ذكرنا ، ورأينا حقًّا علينا أن نلم بمكانٍ لعب فى تاريخنا الدينى والسياسى والأدبى دوراً ذا بال .

وما كان يُغفر لنا أن نكون بالأحساء ثم لا نزور منطقة البحرين التى كانت منزل «بكر بن وائل ، وعبد القيس» وفى ربوعها نشأ شعراء فحول ، لهم فى الأدب العربى مكان أى مكان . ومن وراء مرتفع الصمَّان[1] الصخرى الذى يتوسط بينها وبين الدهناء فيعزلها عن نجد ، تسللتْ جموعُ « القرامطة »[2] فى القرن الثالث الهجرى ، حتى إذا جاوزوا الأحساء اندفعوا كإعصار مارد ، يُلقون الرعب فى القلوب ويعيثون فى الجزيرة فساداً ، ويأخذون طوائف الحجيج عاماً بعد عام ، فيقتلون مسرفين فى القتل ، ثم يعودون بالأسرى إلى هَجَر[3] . وما جاء القرن الرابع حتى كان زعيمهم «أبو طاهر الجنابى

(١) الصمان : مرتفع صخرى متاخم للدهناء . قيعانه عذبة المياه ، ورياضه معشبة . انظر معجم ياقوت ٥/ ٣٨٣ .

(٢) القرامطة : جماعة متمردة ، عاثت فى الشرق الإسلامى فساداً فى القرن الثالث الهجرى ودوخت الدولة العباسية .

(٣) هجر : قاعدة البحرين ، ومقر عصابة القرامطة ، التى أرادت أن تجعل من (هجر) المركز الدينى للإسلام ، بدلا من مكة . راجع (تاريخ أبى الفدا ٢/ ٩٠ ، ومعجم ياقوت ٨/٤٤٦) .

القرمطى »[١] يتسلق أسوار البصرة فى نحو ألفين من رجاله ، ويغلب على الكوفة ويتسلم الأنبار ويفتك بعسكر للدولة عِدَّته بضعُ عشرات من الألوف ! .

أجل ، كان حقًّا علينا ونحن فى الأحساء أن نلم بالقطيف ومنطقة البحرين ، فمضينا ونحن نردد قول الشاعر :

وتركْن عنترَ لا يقاتل بعدَها ... أهلَ القطيف قتالَ خيلٍ تنفع !

وقول الآخر :

نصحت لعبد القيس يوم « قطيفاً » ... فما خيرُ نصحٍ قيل لم يُتقبلِ ؟
فقد كان فى أهل القطيف فوارسٌ ... حماة إذا ما الحربُ ألقتْ بكلكلِ

* * *

سارت بنا السيارات إليها فى الطريق الصحراوى المعبد من ميناء الدمام ونحن نرنو فى صمت إلى الصحراء الممتدة ، وقد أذابت شمسُ الأصيل فيها أشعتها الذهبية الغاربة ، وألقتْ عليها غلالة رقيقة متموجة . ولاحتْ لنا « القطيف » من بعيد ، واحةً ناضرة على حافة الصحراء ، وجنة خضراء على طرف القفر المجدب ، ومراحاً خصباً عامراً شمالى الربع الخالى . وقد تعلقت بها أبصارنا ، حين بدأت السيارات تتعثر فى دروب ضيقة ، تحف بها البساتين عن يمين وشمال ، وتجرى فيها الغُدران فياضةً بمياه العيون والآبار .

وتهادى إلينا نسيم المساء رخيًّا عليلاً معطراً بأريج الأزهار وشذا الثمار ورائحة العشب ، وبزغت أضواء الشفق الوردى فتوجت هامات النخل الباسقات ، ثم نفذت من بين السعف واستلقت فى وهنٍ وتَراخٍ على صفحة الغدير المتألق ، وفوق العشب الندى ، غيرَ مكترثة لصراخ أبواق السيارات ، ولا عابئة بنباح الكلاب فى آثار القطعان .

وكذلك استغرقنا نحن فى خمول هنيء ، لم نكد نفيق منه إلا على هتاف أهل « القطيف » وقد خرجوا بمشاعلهم يستقبلون ضيوفَهم أبناء النيل .

وأبى الكرام أن يكتفوا منا بحفلة الاستقبال فى دار « السيد حَمُّود : أمير القطيف » أو جولة عابرة فى المنطقة ، بل دعونا إلى مجلس حافل أُعِد لنا فى بستان الوجيه « السيد عبد الله إخوان » أحد الأدباء الأعيان .

وكانت أمسية لا تنسى !

---

(١) أبو طاهر القرمطى : سليمان بن الحسن أبى سعيد ، زعيم القرامطة ، مات بالجدرى فى هجر سنة ٣٣٢ هـ . راجع (تاريخ أبى الفدا ٢/٩٠) .

لم يبق فى القطيف من لم يسع إلى مجلسنا هناك ليلقى إلينا كلمة تحية وعتاب :

أما التحية فلمصر العزيزة الغالية ، قبلة أنظار الشرق العربى ، ومهوى عقول أبنائه ، وكعبة الرواد والقاصدين من طلبة العلم وراغبى الثقافة .

وأما العتاب فلأدباء مصر الذين نسوا أن فى شرق جزيرة العرب واحةً اسمها القطيف ، شاركتْ فى صنع تاريخنا الإسلامى وتركتْ فى تراثنا الأدبى أثرها الباقى الذى لا يزول .

إن « دارين »[1] ماتزال هناك ، ترجع صدى أغانى « النابغة[2] الجعدى » و « الفرزدق »[3] وغيرهما من الشعراء الذين لم يجدوا ما يشبهون به عرف الحبيبة أذكى من مسك دارين . وإن بساتين « هَجَر » باقية حتى الساعة ، مثمرة غناء ، تبتسم للضاربين فى الصحراء ، وتعدهم الظل والتمر والماء ، كما كانت فى قديم الزمان يوم ضرب العرب بها المثل :

« كحامل التمر إلى هجر »

وهناك ، ماتزال آثار من الكُعَيْبة تروى قصة ذلك الحلم الأحمق الذى راود « أبا طاهر القرمطى » وزيّن له أن يجعل من « هَجَر » وارثةً لمكة ، فوافى البلدَ الحرام إبانَ موسم الحج من سنة ٣١٧ هـ ، ودخله فى تسعمائة من شيعته ، فقتل أميرَ الكعبة ، وفتك بألوف من الحجيج فى المسجد وفى فجاج مكة ، وقلعَ بابَ الكعبة ، وانتزعَ الحجر الأسود ثم اعتلى سطح البيت وهو يصيح :

أنـا بـالله وبـالله أنـا يخلق الخلقَ وأفنيهم أنا !

قيل إنه قتل بفجاج مكة وظاهرها ، زهاء ثلاثين ألف نفس ، غير مَنْ سَبى من نساء وغلمان . وأقام بمكة ستة أيام ثم عاد فى موكبه الحافل يحمل الحجر الأسود إلى « هَجَر » فبقى بها هذا الأثر المقدسُ نيفاً وعشرين سنة ، حتى أعاده القرامطة إلى مكة عام ٣٣٩ هـ وهم يقولون :

« رددناه بأمر من أخذناه بأمره ! »

---

(١) دارين : فرضة بالبحرين ، يجلب إليها المسك من الهند ، وقد تغنى الشعراء بمسكها . راجع (معجم ياقوت ٢/ ٥٣٧ ومعجم ما استعجم للبكرى ١/ ٣١٥) .

(٢) النابغة الجعدى : أبو ليلى بن عبد الله – شاعر جاهلى مقدم ، أدرك الرسول عليه الصلاة والسلام وأنشده شعراً ، راجع (الإصابة ، وطبقات الشعراء لابن سلام والأغانى ٥/ ١ ط دار الكتب) .

(٣) الفرزدق : همام بن غالب بن صعصعة . أحد أمراء الشعر الثلاثة فى العصر الأموى ، وأبرعهم فى الفخر ، انظر (الأغانى ٩/ ٣٢٤ ط دار الكتب) .

أما تستحق بلاد البحرين بعد هذا لفتة من أدباء مصر، ودارسي التاريخ الإسلامي والأدب العربي؟

إنهم ليحجون إلى الحجاز ألوفاً ذات عدد كلَّ عام، وإن منهم من ينتدب للعمل أو التدريس في البحرين واليمن والكويت، فهلا ألمّ بالقطيف من كل أولئك زائر؟

* * *

وهي، على الهجر الأليم، لا تكف عن ذكر مصر، وتتبع نهضتها العلمية والأدبية، إنها في معزلها النائي المهجور على ساحل الخليج، تستورد البضاعةَ الأدبية من ضفاف النيل، وتتعرف عن سير الفن والحياة بها، وأعلام الأدب والفكر فيها، ما قد يجهله المصريون أنفسهم، لا أكاد أستثني منهم سوى قلة من خاصة المتعلمين.

كم تألمت وأنا أصغي إلى حديث أدباء القطيف عن مدارسنا الفكرية ومعاركنا النقدية ومذاهبنا الفنية؟! كم خجلت وأنا أرى في أيديهم كتبنا ومجلاتنا، نحن الذين لا نشعر بهم أو نلقي إليهم بالا؟ كم تأثرت وأنا أسمع الشاعر «عبد الرسول الجشي» يُعرفنا ببلده الذي هو قطعة من وطننا العربي:

هذي بلادي وهي ماضٍ عامر مجداً، وآتٍ – بالمشيئةِ – أعمرُ
ألقى عصاه على فسيح ضفافها وعلى الجزائر، عالَمٌ متحضرُ
وأذلَّت التيارَ تحتَ شراعِها فلها عليه تحكمٌ وتأمُّرُ
وترى السفائن بالتوابلِ والحُلَى والعطرِ من بلدٍ لآخرَ تُحْمَلُ
شهدتْ موانى الهند خفقَ قلوعها فكأنها فوقَ المياه الأنسُرُ
ولها على وادى الفرات ودجلةٍ فضلُ المعلم وهو فضلٌ يؤثَر

* * *

وأتت «ربيعةُ» وهي غُرَّة يَعْرُب وأذبُّها يومَ الكفاح وأصبرُ
وأعزُّها جاراً وأكثرها قِرًى إذ يمحُلُ البلد الخصيبُ ويُقْفِر
فرأتْ بها الوطنَ الخصيبةَ أرضُه للماءِ فيه تدفقٌ وتفجُّر
والنخل وارفة الظلال كأنها جيش كثيف بالخليج مُعَسكِرُ
تهدى لها الصحراءُ في السحَرِ الصَّبَا فتمر كالحلم اللذيذ وتخطر
والبحرُ يُهديها اللآلئَ زينةً وتجارةً فيها الغِنى يتوفَّر
وكصفحةِ المرآة جوٌّ مُشرِقٌ وكلوحةِ الفنان ريفٌ مُزْهِر

ورأت بها لغةُ العروبة بيئةً شعريةً توحى ، وجوًّا يسحر
فإذا الضفافُ نشائدٌ مسحورة وكأنما فى كلِّ حَلْقٍ مِزْهَر
الملهَمون المبدَعون تسابقوا فيها بمَدرجَةِ الخلود وشمَّروا
شعراءُ « عبد القيس » تهزج بالهوى فيجيبها من « بكر » رهطٌ أشعر
فيها جنى « ابن العبد » [١] حُلو شبابه راح وريحانٌ ، ووجهٌ أقمر
وخيالُ « خولة » [٢] يستثير غرامه فيظل فى أطلالها يتحسَّر
والجعفرِ الخطِّى فنٌّ خالد وروائع غنَّى بهن السَّمر

* * *

على مثل هذا كان يدور السمر فى أمسيتنا ببستان الأخ « السيد عبد الله إخوان » فى القطيف . والآن وقد رجعت إلى مصر ، أرى حقًّا علىّ أن أنقل إلى قومى بعض أصداء ذاك المجلس الأدبى ، ليعلموا أن على ساحل الخليج فى أقصى الشرق من جزيرة العرب ، علماء مجتهدين وشعراء ملهمين ، يتطلعون إلى مصر ويحتفون باسمها ، ويباركون ثمار نهضتنا فى العلم والفن ، « ويعتزون – كما قال الأخ السيد حسن بن على أبو السعود – بما بيننا من روابط الدم واللغة والعقيدة ، ويُكِنون لأبناء الكنانة كلَّ تقدير ومودة ، ويرون فى الثقافة المصرية الموردَ العذبَ النمير » .

ويالها من روابط عزيزة تجاهلناها نحن فلم نؤد ما لها علينا من حق ، وتشبث بها إخواننا هناك ، فما كادوا يروننا حتى هتف مضيفنا الكريم : « ليت هذه الزيارة التى طالما رنونا إليها ، تكون فاتحةَ تعارف وهمزة وصل بيننا وبين مصر الشقيقة . وما أمَسَّ حاجتنا إلى هذه الأخوة وذاك التعارف ، حتى نصبح ، نحن بنى الضاد ، كالبنيان الواحد يشد بعضه بعضاً ، وكالجسم الواحد إذا اشتكى منه عضو تألم له سائر الأعضاء » .

وقال الأديب « محمد سعيد الشيخ الخنيزى » :

إن بيننا وبين الصفوة الأمناء من أدباء مصر ومفكريها ، تياراً متصلاً فى الفكر والروح ، مهما تنأ بنا الديار ، وتفصلنا بيداء وبحار :

---

(١) ابن العبد : طرفة ، الشاعر الجاهلى المشهور .

(٢) خولة : حبيبة طرفة ، وفيها يقول ، فى مستهل معلقته :

لخولة أطلال ببرقة ثهمد تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد
وقوفاً بها صحبى على مطيهم يقولون لا تهلك أسىً وتجلد

إن القطيفَ ومصر شعبٌ واحد ... فى المبدأ السامى وفى الأفكار
فمتى نرى هذى الصفوفَ توحدت ... ترمى العدوَّ بمارج من نار؟

وقال الشاعر « محمد سعيد الجشى » :

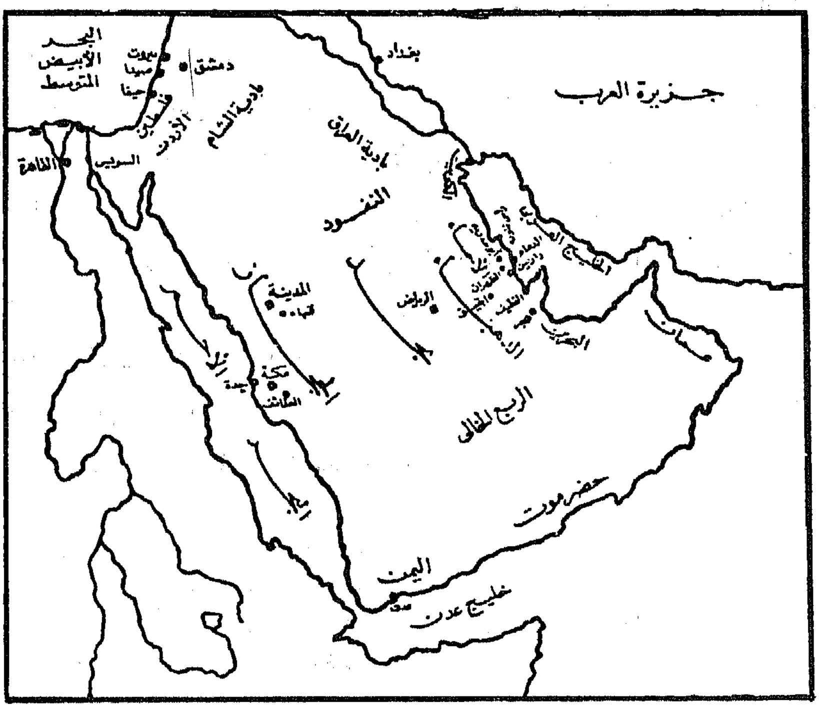
هذى القطيف شيوخها وشبابها ... هبَّتْ تحييكم بكلّ لسانِ
فلْتُخبروا مصرَ العزيزةَ أننا ... أخوَانِ فى الأوطانِ والأديان
هذى ربوعُ العربِ مهدٌ واحد ... لا فرقَ بين بعيدِها والدانى
وشعوبُها أمَمٌ موحَّدة الهوى ... فى كلّ ما يرمى لرفع كيَان

لبيكم أيها الإخوان الكرام ! هاأنذى أبلغ الرسالة وأسجل أصداء ما سمعت منكم هناك ، فهل ترى يبلغ صوتى مسمع الأدباء والدارسين من بنى وطنى ؟ !

أرجو ، وآمل . .

وتحية طيبة ، يحملها هذا الكتاب إليكم وإلى أهل الجزيرة جميعاً . .

مصر الجديدة : مايو ١٩٥١ ... من بنت الشاطئ



(٢)

لقاء مع التاريخ

١٣٩٢ هـ : ١٩٧٢ م

•

- لبيك اللهمَّ لبيك
- فى دار الهجرة
- عَوْدٌ على بدء

* * *

- من وحْيِ الملتقَى

– من ذُرَا عرفات إلى سفح المكبِّر

– أغنية للعيد

– رسالة العيد

لَبَّيك اللهمَّ لَبَّيك

على غير موعد كان هذا اللقاء مع التاريخ .

كنتُ إلى شهر ذى القعدة من عامنا الحالى – ١٣٩٢ هـ – فى المغرب الأقصى مشغولة بدراساتى القرآنية فى جامعة القرويين ، أرى فيها الجهاد والعبادة .

وقومنا هناك مشغولون بمراسم الوداع لخمسة عشر ألفاً من الحجاج المغاربة ، فى حفلات سيطرت على ديار المغرب ، وملأت الأفق بموشحات وأناشيد أرهفت شوق القاعدين ، وأنا منهم .

وأرّقنى الحنين إلى الحرمين ، من حيث بدا أن لا مكان لى على الطائرات المحجوزة كلها ، إلى آخر يوم يدرك موسم الحج .

وقد دنا الموعد ، والأمل يبدو بعيداً . .

ثم أذن الله تعالى فهيأ لى الأسباب من حيث لا أتوقع . وفى أيام معدودات كانت إجراءات سفرى قد تمت بفضل همة السفير السعودى فى الرباط « السيد فخرى شيخ الأرض » وصحبتنى مروءته حتى ركبت الطائرة من الدار البيضاء ، مع آخر فوج من الحجاج المغاربة .

ومعى ما تيسر من الدراهم ، وزادٌ قليل من الخبز القديد والإدام الجاف ، قدَّرت أنه يكفينى مع التقشف ، فى رحلة نسك وعبادة .

* * *

بلغنا مطار جدة فى الصبح الباكر من يوم الجمعة ، الرابع من ذى الحجة ، لأجد نفسى فى ضيافة سمو الأمير الشاعر « عبد الله الفيصل » من حيث لم أحتسب أنه مايزال يذكرنى ، وآخر عهدنا باللقاء مجلس سمَر فى أمسية قاهرية بعيدة ، طربنا فيها على نغم قصيدته الشجية (سمراء) .

وأثار لقاؤنا الجديد شجون ذكريات لمجالس حافلة جمعَتنا قبل عشرين سنة فى جدة وفى مصر ، كنا فيها نستقبل الحياة والدنيا بخير والبال خَلِىٌّ .

وفيما كنا فى المساء بقصر جدة ، نسترجع الذكريات ونتناشد الأشعار ونتشاكى أشجاننا

وهموم أمتنا ونتدبر عبرةَ أيامنا وليالينا ، استأذن زائر من رجال المراسم الملكية ، تحدث إلى سمو الأمير « عبد الله » فالتفت إليّ ليبلغنى متلطفاً ، أننى انتقلت من ضيافته إلى ضيافة جلالة الملك الفيصل ، حفظه الله .

وخَطر على بالى وأنا مأخوذة بهذه الرعاية الكريمة المضاعفة ، ما جئت به معى من زاد الخبز القديد والإدام الجاف ، حملته من أقصى المغرب إلى جدة ، عبر قارات ثلاث .

وبقى علىّ أن أتدبر حيلة للتصرف فى توزيعه بوسيلة أو بأخرى . . .

وشهِدتُ الموسم مع مليون وخمسين ألف حاج ، وسِعَتْهم الأرض المباركة حيث يقضون مناسك حجهم معاً ، ويتحركون فى وقت واحد من المطاف إلى مقام إبراهيم فالمسعى ، ويبيتون جميعاً ليلة الوقفة فى منى ، ويبكرون معاً فى الصبح إلى عرفة ، ومنها يفيضون بعد غروب الشمس إلى مزدلفة ، ومعاً يعودون إلى مِنى فتؤويهم أيام التشريق على رحبٍ وسعة !

وإن أكبر عواصم العالم لتضيق ببضعة ألوف من السائحين ، إن طرءوا عليها فى وقت واحد . . ويُعييها أن تدبر لهم المنزل والطعام ووسائل الانتقال . .

* * *

فى كل خطوة وكل موقف ومشهد ،

وجدتُنى مع التاريخ فى أم القرى والبيت العتيق :

مدَنية العصر قد غزَت الوادى الأجرد غير ذى الزرع ، وأسراب الطائرات والسيارات قد حلَّت محلّ النوق والجمال ،

والكهرباء أبطلت وقود الحطب ،

والرخام يرصف ساحة البيت العتيق وطريق المسعى ، مكانَ الحصى والرمال .

والمبانى العصرية تقوم حيث كانت الدور البدوية البسيطة .

ولا شىء من هذا كله ، يَمَس روحَ المكان . .

تغير الشكل والمظهر ، وبقى للمكان جوهرُ شخصيته التاريخية ، يتألق بنور قداسته ويتوهج بسنَا أصالته وعراقته .

والكعبة تستبدل بكسوتها كلّ عام أخرى جديدة ،

وتبقى شخصيتها بمنأى عن طوارئ التغيير : مثابة الحج ومهوى الأفئدة ، وبيت الله الحرام ، أقدم بيت عُبِد فيه سبحانه وتعالى على الأرض ، وأحب أرض الله إلى الله ورسوله وأمته .

وكذلك تتغير أشخاص الحجاج موسماً بعد موسم ، وتختلف شخصياتهم من جيل إلى جيل .

والسَّمْت واحد ، على تفاوت الأجيال ،

والشعائر والمناسك واحدة ، على تباعد السنين والقرون . .

ويتصل الحاضر بالماضى عبر حقب ودهور ، فى هذه البقاع المباركة التى تحتفظ بجوهر شخصيتها منذ عرفها التاريخ مثابة للحج وأمْناً ، فلسنا نراها اليوم إلا كما رآها آباء لنا وأجداد على مر الزمان :

لبوا كما لبَّينا ، وطافوا مثلما طفنا ، وسعوا كما سعينا ، ووقفوا بالمشعر الحرام وعلى عرفات كما وقفنا ، ونفروا إلى المزدلفة كما نفرنا ، ونحروا فى مِنى كما نحرنا ، وباتوا بها ليلة الوقفة وليالى التشريق حيث بتنا .

والأماكن غيرها تتغير وتتبدل ، فيطمس جديدُها معالم القديم ، ويَدُكُّ عمرانُها المحدث أطلال العتيق ، فلو أن أحداً من أهلها غاب عنها بضع عشرات من سنين ، ثم عاد إليها ، لأنكرها وأنكرتْه ، وأعوزه فيها ترجمان ودليل . .

* * *

كم عرفت الدنيا بيوتاً غير هذا البيت العتيق !

كم شِيدَتْ من قبله ومن بعده ، قصور باذخة ومعابد شامخة وصروح ممردة شاهقة !

وهذا البيت العتيق حيث هو منذ كان ، تتضاءل دونه أبهى البيوت وأفخم القصور وأعلى الصروح !

وراء المعروف من تاريخه الدينى ، دهور وأحقابٌ موغِلة فى أعماق ما قبل هذا التاريخ ، شهد الزمن فيها موضع هذا البيت ملاذاً للضاربين فى مفاوز الفلاة ، يلتمسون لديه الأمن والراحة ، ويؤدون فى حماه شعائر عبادتهم التى ارتدت فى ظروف مجهولة إلى وثنية ضالة ، هجرت البيت العتيق فلم يبق منه سوى أطلالٍ جذبت إليها « إبراهيم » فجاءها من أرض كنعان ، وترك عندها ولده إسماعيل مع أمه هاجر .

لم يجد لها ملاذاً سوى جوار البيت المحرَّم العتيق عندما ضاقت بهما امرأته السيدة سارة وأصَرَّت على ألا يضمّها وجاريتها الولود سقف بيت واحد .

فى جوار البيت العتيق أنزلها ، وانصرف عائداً إلى أرض كنعان وهو يدعو ربه :

« ربَّنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربَّنا ليقيموا الصلاة ،

فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » .

واستجاب الله لدعائه ، ونظر إلى الأم المنبوذة قد أجهدها السعى بين الصفا والمروة بحثاً عن قطرة ماء أو أثر لحياة فى الوادى القفر الماحل .

حوَّم طائر على المكان ونبش فى الأرض فانبجس الماء من نبع زمزم . ونجا إسماعيل ، وانبثت الحياة فى القفر : مرَّت قافلة من جرهم قرب المكان ، فلمحت الطير محوّماً عليه ، واتجهت نحوه لعلمها أن الطير لا يحوم على غير ماء . وألقت رحالها حول النبع المبارك .

وبورك مسعى الأم بين الصفا والمروة ، فأخذ موضعه بين شعائر الله فى الحج .

فذلك هو مسعانا مهرولين بين الصفا والمروة ، مثلما سعت هاجر التى دخلت التاريخ الدينى بهموم أمومتها ، وأعطت « عيدَ الأم » عندنا قيمته ومعناه .

وعاد إبراهيم إلى ولده وقد بلغ معه مبلغ السعى ، فأفضى إليه برؤياه : أن يذبحه قرباناً لربّ هذا البيت العتيق .

وامتثل الفتى لأبيه فى أمر ربه صابراً لم يتردد . . .

ثم تجلت رحمة الله بعد ذلك البلاء المبين فكانت آية الفداء :

« فلَما بلَغَ مَعهُ السَّعىَ قالَ يا بُنَىَّ إنى أرى فى المنام أنى أذبحُك فانظرْ ماذا ترى ، قال يا أبَتِ افعلْ ما تؤمَر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ، فلما أسلَما وتلَّه للجَبين . وناديْناهُ أنْ يا إبراهيم . قَد صَدَّقتَ الرؤيا إنا كَذلك نجزى المحسنِين . إن هذا لهوَ البلاءُ المبينُ ، وفديناه بذبْحٍ عَظيم » .

وخلَد المشهد شعيرة من شعائر الدين ، فكلما هلَّ عيد الأضحى نحرنا الضحية فى مِنَى ، أو حيثما نكون ؛ ذكرى وعبرة ، وإحياء لمشهد البذل والفداء طاعة وتقوى .

والعبرة فى الشعائر بالتقوى :

« لن ينال الله لحومُها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » .

« ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب » .

وبلغ الذبيح المفتدَى أشُدَّه ، فأصهر إلى جرهم وتعرَّب فيها لتعمر مكة بذريته العرب العدنانية المتعربة .

وتلقى العَهد مع أبيه إبراهيم :

« وإذ جعلنا البيت مثابةً للناسِ وأمْناً واتَّخذوا من مقام إبراهيم مُصَلّى ، وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيلَ أنْ طهِّرا بيتى للطائفين والعاكفين والركَّع السجود » .

واستجابا لأمر الله تعالى واتجها إليه بالضراعة والابتهال والدعاء :

« وإذ يَرفعُ إبراهيم القواعدَ مِنَ البَيْتِ وَإسماعيلُ ربَّنا تَقبَّل منا إنك أنت السميع العليم * ربَّنا واجعلنا مُسْلمَين لكَ ومن ذُريتنا أُمَّةً مُسلمَة لكَ وأرنا مَناسِكنا وتُبْ عَلَيْنا إنَّك أنت التَّوابُ الرحِيم . ربَّنا وابعث فِيهم رَسولاً مِنْهُم يَتلو عَلَيْهِم آياتِك ويُعلِّمَهُم الكتابَ والحِكْمة ويزكيهم ، إنك أنت العزيزُ الحكيم » .

فتلك هي صلاتنا في مقام إبراهيمَ بعد الطواف بالكعبة في حَجٍّ أو عمرة .

ومن ذلك الماضي الموغل في القِدَم ، كان الأذانُ في الناس بالحج إلى بيت الله المحرَّم المطهر :

« وإذ بوَّأْنا لإبراهيمَ مَكانَ البَيْتِ أنْ لا تُشرِكْ بي شَيْئاً وطَهرْ بَيتِيَ للطائفِينَ وَالقائِمين والرُّكَّعِ السُّجُود . وأذِّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كلّ ضامرٍ يأتينَ مِنْ كلِّ فَجّ عَميق » .

* * *

وتأصلت حرمة أم القرى لموضعِ هذا البيت منها ، فما عرف التاريخ سواها عاصمة دينية للعرب في الجاهلية .

وقد غبرت عليها عصور بعد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، ارتدَّ فيها العرب إلى الوثنية ، دون أن تفقد مكةُ حُرمتها فيهم ، أو ينقطع حجهم إلى بيتها العتيق .

وغلب عليهم اليقين أن مكة (لا تُقِرُّ فيها ظُلماً ولا بغياً . ولا يبغى فيها أحدٌ على أحد إلا أخرجتْه ، ولا يُريدُها ملكٌ يستحلّ حرمتها إلا هلك مكانه) .

والمرويات عن تاريخها مع الجبابرة المفسدين ، شاهدة على رسوخ ذلك اليقين[١] :

بغى فيها جُرهم ، فأخرجهم بنو إسماعيل منها أذلة صاغرين ، يبكيهم شاعرهم راثياً :

كأن لم يكن بين الحَجون إلى الصَّفا أنيس ولم يسمر بمكة سامِرُ

وهمَّ « تُبَّع الحِميرى » بالبيت العتيق يريد إخرابه ، فيُروى أنه رُمِي بداء تمخض منه رأسُه قيحاً وصديداً ، وتيبستْ أطرافه وأعيا الطبَّ علاجه . حتى نُصِحَ بأن يرجع عما أراد بالبيت العتيق .

وحملوه فطاف به معظِّما ، وكسا الكعبة وأطعم الناسَ ، فنجا . .

(١) اقرأها بتفصيل في الجزء الأول من : السيرة النبوية لابن هشام ، وطبقات ابن سعد ومعهما : تاريخ الطبرى ، وتاريخ مكة للأزرقى .

وهلك من بعده صاحبُ الفيل « أبرهة الحبشي » : كان قد بنى كنيسة فخمة فى صنعاء ليصرف إليها حجَّ العرب . وجلَب إليها (الرخام المجزع والحجارة المنقوشة بالذهب ، من بقايا قصر بلقيس ملكة سبأ . ونصب فيها صُلبانا من الذهب والفضة ومنابر من العاج والآبنس . ثم كتب إلى مولاه نجاشي الحبشة : إنى قد بنيت لك أيها الملك كنيسةً لم يُبْنَ مثلُها لملك كان قبلك ، ولست منتهياً حتى أصرف إليها حجَّ العرب) .

لكن أبرهة هلك دون غايته .

منع الله بيته الحرام ، وسلَّط على أصحاب الفيل وباءً مهلكاً ، رمتهم بجراثيمه طير أبابيل ، فجعلتهم كعصف مأكول .

ولم يكن لمكة عهد قبل ذاك بوباء الجدَرى ، فيما نقل « ابن هشام » فى (السيرة النبوية) .

وبقى البيت العتيق فى أم القرى مثابة للناس وأمناً ، ومثابة الحج لقبائل العرب جميعاً .

وبلغ من رسوخ اليقين بحرمته ، ما تناقلته الأجيال إلى قبيل عصر المبعث فى تفسير لوثَنى أساف ونائلة ، تذكره السيدة عائشة أم المؤمنين فتقول فيما نقل ابن هشام :

« مازلنا نسمع أن أساف ونائلة رجلا وامرأة أحدثا عند الكعبة ، فمسخهما الله حجرين لاعتدائهما على حُرمة الكعبة » .

وفى ليل الجاهلية ، بقيت ذكرى مناسك الحج على تقادم الزمن من عهد إبراهيم وإسماعيل ، وإن مسختها الوثنية العمياء ، طقوساً صماء .

ويقدم التاريخ تفسيراً دينيًّا لهذه الوثنية ، يرتبط بقداسة البيت العتيق عند العرب ومنزلته فى عقيدتهم وقلوبهم ، ففيما نقل « ابن هشام » بالسيرة النبوية :

« أول ماكانت عبادة الحجارة فى بنى إسماعيل ، أن كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم ، حين ضاقت عليهم وتفسحوا فى البلاد ، إلا حَمَل معه حجراً من حجارة البيت تعظيماً للحرم . فحيثما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافِهم بالكعبة » .

ثم مع الزمن ، تاهت الدلالة الرمزية ، وبقيت الحجارة أصناماً يعبدون فيها ربَّ هذا البيت لتقربهم إليه زلفى : « ألا للهِ الدِّين الخالِصُ والذين اتخذوا مِنْ دُونه أولياء ما نَعبدُهُم إلا لِيقرِّبُونا إلى اللهِ زُلْفَى » .

* * *

وكان لمكة فى الجاهلية الوثنية ، أشهر أربعة حرم ، لا يحِلُّ فيها قتال إلا أن ينسأها لهم أحد النسأة ، فيؤجل حرمة الشهر منها إلى آخر من الأشهر غير الحرم .

النسيء كان وظيفة من الوظائف الدينية العريقة التي تعتز بها القبائل ، فيقول « عمير بن قيس » يفخر بالنسأة من قومه بنى مالك بن كنانة :

ألسنا الناسئين على مَعَدٍّ شهورَ الحِلّ نجعلها حراما ؟

كما افتخر « أوس بن تميم السعدى » بما كان قومه يتولون من إجازة الناس بالحج من عرفة :

لا يبرحُ الناس ما حَجُّوا مُعرَّفَهم حتى يقال : أجيزوا آلَ صَفوانا

مجدٌ بناه لنا قِدْماً أوائلُنا وأورثوه طوالَ الدهر أخرانا

وفى قريش ، كان شرف وظائف سقاية الحجيج ورفادتهم فى الموسم ، وراثةً من جدهم « قصى بن كعب بن لؤى » المضرى العدنانى .

ويذكرون من خبر السقاية ، أنها لما آلَتْ إلى « عبد المطلب بن هاشم » – جد المصطفى عليه الصلاة والسلام – شقَّ عليه ما يلقى الحجيج من شُح الماء . فذكر بئر زمزم التى أنقذت جده إسماعيل وجذبت إلى مكة قوافل الرعاة . وكان الناس إلى زمن عبد المطلب ، يتناقلون خبر جُرهم لما طمرت بئر زمزم ، عند خروجها من مكة . فتعلق أمل عبد المطلب بالعثور على النبع المبارك المطمور . ومع طول التفكير صار هذا الأمل مشغله ليله ونهاره . حتى دلَّتْه رؤيا ملهمة على موضع البئر ، فغدا إليه بمعوله ، ومعه ابنُه الحارث ، ليس له يومئذ ولد غيره . فلما همَّ بالحفر تصدت له قريش تتحداه أن يحفر هناك . وقد استضعفته أنْ لم يكن له غير ولد واحد . لكنه لم يبال غضب قريش ورفضها ، وتابع الحفر حتى بدت له الحجارة التى طُويت زمزم تحتها . وعاد الماء فتدفق من النبع المبارك ، يسقى الحجيج . .

يومها ، نذر عبد المطلب لئن وُلد له عشرة أبناء وبلغوا معه بحيث يمنعونه ، لَينحرنَّ أحدهم عند الكعبة . وتوافى بنوه عشرة ، فتلبث عبد المطلب حتى بلغ أصغرهم « عبد الله » رشده ، ثم دعا بنيه إلى الوفاء لله بنذره ، فلبَّوا طائعين ، وما يدرون أيهم الذبيح حين خرج بهم أبوهم إلى الكعبة وقد حمل كل منهم قدحاً باسمه . وضرب صاحب القداح عليها ، فخرج على قدح عبد الله ، وقد كان أبوه يتمنى فى نفسه ، أنّ لو أخطأه السهم . . .

وتكررت قصة الفداء : همّ الشيخ بذبح ولده ، فما إن مَسَّت الشفرة منحره حتى قامت قائمة قريش ، وقد هالها أن يغدو عملُ عبد المطلب تقليداً يُتبع ويورث ، أو كما قالت يومها :

« والله لا تذبحه أبداً حتى تُعذَر فيه . لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتى بابنه فيذبحه ، فما بقاء الناس على هذا ؟ » .

وأجمعوا أمرهم على أن يستشيروا فيه عرّافةً لهم بخيبر . قالت ، لما عرَفَت أن الديَة فيهم عشر من الإبل :

– ارجعوا إلى بلدكم فاضربوا القداح على ولدكم هذا وعلى عشر من الإبل ، فإن خرجتْ عليه فزيدوا عشراً ثم عشراً حتى تخرج القداح على الإبل . فانحروها عنه وقرّبوها ، فقد رضى ربكم .

وفعلوا ، فمازال القدح يخرج على عبد الله وهم يزيدون الإبل عشراً فعشراً ، حتى بلغت مائة ، فخرجت القداح عليها . ولم يطمئن عبد المطلب حتى كرروا ضرب القداح ثلاث مرات ، وهى تخرج على الإبل المائة . فنحرها وتُرِكتْ لا يُصَدّ عنها إنسان ولا وحش .

ونجا عبد الله ، واسترجعت مكة ذكرى الذبيح المفتدى الأول : إسماعيل ، جد قريش والعرب العدنانية .

ومن الكعبة خرج عبد المطلب بولده عبد الله إلى بيت سيد بنى زهرة : وهب بن عبد مناف الزهرى ، فخطب ابنته « آمنة » عروساً لعبد الله ، « وهى يومئذ أفضل فتاة فى قريش نَسَباً وموضعاً »

* * *

فى عام الفيل ، وُلِد اليتيم الهاشمى الذى مات أبوه عبد الله فى طريق عودته من رحلة الشام ودُفِن فى ثرى يثرب ، ولم يقبل الموتُ فيه هذه المرة أى فداء :

وفى السادسة من عمره ، خرجت به أمه آمنة من مكة إلى يثرب ، لزيارة قبر أبيه عبد الله هناك . وغالها الموت فى طريق الإياب ، فدفنوها بالأبواء ، وتابع محمد سيره إلى مكة ، وحيداً محزوناً مضاعَفَ اليتم .

وفى صباه ، شهِد حِلْفَ الفضول فى دار ابن جدعان بمكة ، وفيه تعاقدت أحياء قريش على ألا تُقر فى مكة ظلماً ، ولا يُظلم فيها أحد إلا كانت على ظالمه حتى ترد مظلمته .

فى الخامسة والثلاثين من عمره ، كان حادث تجديد بنيان الكعبة الذى حسم فيه محمد خصومة معقدة بين قبائل قريش ، أنذرتْ بحرب :

كانت الكعبة قد مسّتْها شرارة من مجمرة إحدى النسوة ، فأحرقت ستائرها وأوهَتْ

بنيانها . ووقفت قريش أمام حرمها الأقدس مكتوفة الأيدى لا تدرى ماذا تفعل ، تهيباً من المساس ببقايا البيت العتيق . وشاع أن البحر رمى بسفينة جنحت إلى ساحل جدة ، فأسرع إليها رجال من قريش ثم عادوا بأخشاب السفينة ، وبرجل من قبط مصر ، نجار بنَّاء .

وتم الاستعداد لتجديد بنيان الكعبة وقريش ماتزال تتهيب أن تمس بقاياها ، حتى قام « الوليد بن المغيرة المخزومى » فأخذ المِعوَل وقال : « اللهم لم نزغ ! اللهم إنا لا نريد إلا الخير » .

ثم أهوى بالمعول على البنيان المتصدع ، والقوم ينظرون إليه مشفقين عليه وعلى أنفسهم . فلما لم يصبه سوء ، تلبثوا ليلتهم مترددين يتربصون عاقبة ماكان . فلما أصبح « الوليد » غادياً على الحرم لم يمسسه شر ، هدموا معه . وتنافست القبائل فى جمع الحجارة للبناء ، حتى إذا تم ، اختصموا فيما بينهم أيهم يستأثر بشرف رفع الحجر الأسود إلى موضعه . وقد كان أقدم أثر باق من البيت العتيق .

ومكثوا على الخلاف بضع ليال ، ونذر الحرب تزداد . حتى تراضوا على أن يُحكموا بينهم أول من يدخل من باب البيت الحرام .

وتعلقت أبصارهم بالباب فى انتظار الحكَم ، فكان أول مَن دخل : محمد بن عبد الله بن عبد المطلب .

هتفوا جميعاً : هذا الأمين ، رضينا بحكمه .

وحدَّثوه بالأمر ، فطلب ثوباً ثم تناول الحجر فوضعه فيه ، وقال للقوم من حوله : « لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعاً » .

فعلوا ، حتى إذا بلغوا به مكانه ، وضعه « الأمين » بيده ، ودعَّم بناءه .

وانجابت الظلال عن أفق أم القرى .

هكذا على طول المدى ، كان لمكة حرمتُها وللبيت العتيق مكانه وجلاله .

* * *

حتى بزغ الفجر الصادق من ليلة القَدْر المباركة وخرج المصطفى « محمد بن عبد الله » مبعوثاً بختام رسالات الدين ، يتلو فى الأميين كلمة الوحى الأولى : اقرأ . .

ونسخ نور الفجر ليل الجاهلية ، فتطهرت ساحة البيت العتيق من الأصنام ، وانطفأت نار المجوسية ، وترنحت صروح الجبابرة تريد أن تنقض .

ودخل الناس فى دين الله أفواجاً ، وأظل لواؤه شعوب الدنيا من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب أمة واحدة : قبلتها هذا البيت العتيق .

* * *

وتمضى الأعوام والقرون .

وتتعاقب الأجيال والعصور ،

والتاريخ مشدود إلى حشود الحجيج فى الموسم الدورى من السنة القمرية ، يسعون إلى البيت العتيق محرمين متطهرين ، خاشعين قانتين . قد تجردوا من كل زينة وجاه وزهو ، وطرحوا عنهم ما يتفاخر به الناس من أزياء وألقاب ورُتب ومناصب ، وتخففوا من أثقال المادية التى تئد روح الإنسان ، وتخنق فيه هيامه الفطرى إلى الحق والخير والجمال .

وامّحت بينهم فروق الألوان والأجناس والعناصر ، وفوارق الطبقات والدرجات ،

واستوى الملوك والرعايا ،

واستوى الأمراء والدهماء ،

واستوى الأغنياء والفقراء ،

واستوى الرؤساء والأتباع ،

فليسوا جميعاً سوى عباد الله .

وتشهد الدنيا فى هذا الحرم آية المساواة فى عقيدة لا يتفاضل الناس فيها إلا بالتقوى : أكرمهم عند الله أتقاهم .

يمحق بها الدين فى ختام رسالاته ، كل ما يئود إنسان العصر من مآسى التفرقة العنصرية وجرائم الاضطهاد المذهبي ، ولعنة الوثنية المادية . .

* * *

بصوت واحد ، فى حرم البيت العتيق غير بعيد من غار حراء ، يعلو هتاف ألف ألفٍ وخمسين ألف مسلم ، شهدوا هذا الموسم :

لبيك اللهم لبيك

لا شريك لك لبيك

ويسترجع بنا التاريخ مشهد المسلمين الأولين وهم يدخلون هذا المسجد الحرام يوم

الفتح ، فى السنة الثامنة للهجرة ، حافّين بالمصطفى عليه الصلاة والسلام ، إذ يصلى بهم فى الحرم المطهر من رجس الأوثان ،

وتتجاوب الآفاق ، عبر الزمان والمكان ، بدعائه عليه الصلاة والسلام يوم الفتح :

« الله أكبر الله أكبر

لا إله إلا الله وحده ،

نصر عبدَه ، وأعز جنده

وهزم الأحزاب وحده »

فهو من ذلك اليوم المشهود دعاء عيدنا ، فى الفطر والأضحى ، يصدع جبروت الطاغوت ، ويمحق أعداء الإنسان الذين يريدون ليطفئوا فى ضميره نور الإيمان « والله مُتم نوره ولَوْ كرِه الكافِرون » .

مِنَى :

١٢ من ذى الحجة ١٣٩٢ هـ

فى دار الهجرة

«إلاَ تَنْصروهُ فَقَد نَصرهُ اللهُ إذ أخرَجَهُ الذين
كَفروا ثانىَ اثْنَين إذْهُمَا فى الغَارِ إذْ يَقولُ
لصاحِبِه لاتَحْزَنْ إنَّ الله معَنَا فأنزلَ اللهُ
سَكِينَتهُ عَليهِ وَأيَّدهُ بجنودٍ لم تَرَوْها وجَعَل
كَلِمة الذين كَفَرُوا السُّفلى ، وكَلِمة اللهِ هى
العُلْيا ، والله عَزيزٌ حَكيم».

صدق الله العظيم

مع التاريخ كان مسعانا من أم القرى إلى دار الهجرة .

صلينا الظهر فى المسجد الحرام ، وحملتنا الطائرة فى العصر من جدة ، فأدركنا صلاة المغرب مع الجماعة فى الحرم النبوى . وبتنا ليلتنا فى جوار الحبيب المصطفى ، يسعى بين أيدينا أهل الحرم مرحبين مكرمين .

هذه الرحلة المريحة التى لم تستغرق ما بين عصر ومغرب ، على متن طائرة ملكية فوق بساط ريح رُخاء ، أرهفت وعينا لحديث التاريخ عن رحلة نبينا المصطفى عليه الصلاة والسلام ، من دار مبعثه فى أم القرى ، إلى دار هجرته فى يثرب .

أبصارنا تحدق فى الطريق الصحراوى الوعر ، تلتمس من عَلٍ موضع « غارِ ثور » بأسفل مكة ، حيث أوى المهاجرُ ﷺ مع صاحبه الصديق ، ريثما تهدأ المطاردة الشرسة من طواغيت قريش .

خرجا إلى الغار من خوخة فى ظهر بيت الصديق ، بعد أن أشرف المصطفى على مهد مولده ودار مبعثه فاستوعبها بنظرة حزينة وقال يودعها :

« والله إنك لأحَبُّ أرض الله إلى الله ، وإنك لأحبُّ أرض الله إلىَّ . ولولا أن أهلكِ أخرجونى منك ، ما خرجت » .

وفى غار ثور كان مأواهما ثلاث ليال ، والمطاردون يَعْدُونَ فى أثرهما ، ويبلغون الغار فيهمّون باقتحامه ، لولا أن صدَّهم عنه نسيجُ عنكبوت على فتحته ، وحمامتان وحشيتان وقعتا عليه .

قال الصديق للمصطفى : لو أن أحدهم نظر إلى قدمه لرآنا .

فكان جوابه ، ﷺ : [لا تحزن إن الله معنا] .

وفى هدأة المساء من الليلة الثالثة لمقامهما فى الغار ، سَرَيا مع دليلٍ ثقة أخذ بهما طريق الجنوب من أسفل مكة ، وكان غير مطروق .

الطريق الوعر يتراءى لنا من نوافذ الطائرة ، بكل مخاطره ومفاوزه والتاريخ معنا ، يتتبع خطوات المهاجر حتى يثرب ، واصلا إليها من قُباء . .

وفى أهل المدينة ، آنسنا ملامح أجدادهم الأنصار من أوس وخزرج ، يوم احتشدوا هناك لاستقبال نبيهم المهاجر ، عليه الصلاة والسلام .

وفى أصواتِهم إذ يرحبون بضيوف الحمى من حجاج الموسم ، رجعُ هتاف الأنصار يوم الوصول :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجبَ الشكرُ علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

* * *

المسجد النبوى يأخذ القلوب والأبصار بجلاله وعظمته ، وسعة رحابه وفخامة مبناه .

الأجيال من أمة محمد ، ﷺ ، قد أغدقت عليه من حبها ما لم يحظ بمثله مثوى بشر . وبذلت له من فنها ومالِها ، فى أريحية وسخاء . وجلبت له من ديار الإسلام ، فى المشرق والمغرب ، نادر الرخام وثمين الخشب وبهىّ الثريات ، وفرشت رحابه بفاخر البسط والسجاجيد ، نسجتها أيدى مهرة الصناع من الشعب الإيرانى المسلم .

وتبقى روح المكان فى أنق أصالتها وعراقتها ، كأن لم تمسسه يدٌ بالتغيير منذ شهد التاريخ بناء هذا المسجد فى الأيام الأولى بعد الهجرة .

دخل المصطفى المدينة من قباء يوم الجمعة ، وسط حشد من المهاجرين والأنصار ، فأدركته صلاتُها فى حى بنى عوف بن سالم ، فصلى بالصحابة أول جمعة بالمدينة . ثم أرخى العنان لناقته القصواء وهى تشق الزحام لا يدرى أحد أين يكون مقام المصطفى فى دار هجرته ، وكل بيوتها مفتوحة له ترحب به .

وبدا الموقف صعباً : كلما مرَّ بحيٍّ من أحياء الأنصار بادر إليه الرجال يسألونه شرف النزل فيهم ، وهو يتحرج من إيثار حيٍّ على آخر فيردُّ معتذراً : « خلوا سبيلَ ناقتى » .

إلى أين ؟ إلى حيث تمضى به القصواء .

وقد خطت وئيداً تشق الزحام حتى بَرَكت به عند مربد هناك . فحطّ المهاجر رحله وقام يصلى .

على ساحة هذا المربد ، بُنى المسجد النبوى : ثانى الحرمين ، ومزار المسلمين على مر الزمان .

وتنافس المهاجرون والأنصار فى بنائه بما تيسر من مواد : اللبن والجريد والليف ، وبعض الحجارة والخشب ، والمصطفى معهم ، يشارك ويوجِّه ويعين . حتى تم البناء ، لم يستغرق أكثر من أيام معدودات . ومن حول المسجد ، بُنيت تسعُ حجرات تفتح على ساحته ، لتكون دار النبى المهاجر .

وكان مبنى المسجد والحجرات بسيطا متواضعاً ، بعضه من حجارة مرصوصة ، وبعضه من جريد يُمسكه الطين ، والسقف كله من جريد .

وشُدَّت خشبات بالليف ، فكانت سريراً لمن اصطفاه الله خاتماً للنبيين عليه السلام .

وغيرَ بعيد من المدينة والحجاز ، كانت قصور الحكام والأمراء والأغنياء ، فى الحيرة وغسان واليمن ، وفى مصر والحبشة وفارس ، تعلو سامقة شامخة . ساطعة بأضواء البذخ والترف ، فتخطف أبصار الدنيا عن ذلك المبنى البسيط المتواضع الذى لم يلبث سنا نوره أن كسف ضوء كل ما عرفت الدنيا من قصور لكسرى وقيصر وفرعون ، وإمبراطور ونجاشي وملك .

وفى الأحياء اليهودية الناشبة فى يثرب ، وفى مستعمراتهم بشمال الحجاز ، دورٌ مشيدة وحصون منيعة ، تطل على المبنى البسيط المتواضع لنبى الإسلام ، فيبدو لها فقيراً أشد الفقر . ويلتقط أهلها ما يتلو الأميون من آيات القرآن فى الحث على الإنفاق فى سبيل الله ، برًّا وتراحما وتكافلا . فتذيع القالة اليهودية الفاحشة : « إن الله فقيرٌ ونحنُ أغنياء » :

وتمضى الأعوام والقرون ، توسع من رحاب المسجد وتسخو فى العناية به والبذل له ، وهو هو ، بروح عراقته وجوهر شخصيته .

* * *

ليلتنا الأولى بدار الضيافة فى جوار الحرم النبوى ، كانت مع التاريخ إذ يروى حديث هذه المدينة التى فُتِحت بالقرآن من قبل الهجرة ، ففتحت قلبها وبيوتها لهجرة الإسلام . وقد كانت إلى ماض قريب ، تبدو بعيدة عن مسرح الأحداث ، وإن لم تصرف سمعها عن الصراع الدائر فى مكة بين الوثنية والإسلام ، وهو يدنو من ذروة تعقُّده مؤذناً بوشكِ تحولٍ فى مُتَّجَه الأحداث .

قبل الهجرة بسنتين ، أهلّ موسم الحج وخرج المصطفى كدأبه فى كل موسم ، يعرض الإسلام على وفود القبائل العربية ، وقومُه أشد ما كانوا عليه من خلافه ورفض دينه ، إلا قليلا ممن آمن به .

وبدت الجولة فى أولها ، مدعاةً إلى يأس وقنوط :

سعى إلى « منى » حيث مجتمع الحاج ، فوقف على الحشود هناك داعياً ومبشراً ونذيراً ، فتصدّى له عمه أبو لهب ، يكذّبه ويصدّ الناس عنه .

وانتظر ﷺ حتى انصرفت القبائل من مِنى إلى منازلها فى مكة ، فأتى كندةَ فدعاهم إلى الإسلام فأبوا عليه .

وكذلك ردَّه بنو كلب ، لم يقبلوا دعوته .

ثم أتى بنى حنيفة فى منازلهم ، فلم يكن أحدٌ من العرب أقبحَ عليه ردًّا منهم .

وانتقل بدعوته إلى بنى عامر بن صعصعة ، فساوموه بالبيعة ، على أن يكون لهم الأمر من بعده !

ولما قال ، عليه الصلاة والسلام : « الأمر إلى الله يضعه حيث شاء » . ردَّ المساومون : « أفنهدف نُحورَنا للعرب دونَك ، فإذا أظهرك اللهُ كان الأمر لغيرنا ؟لا حاجة لنا بأمرك » .

ومن حيث بدت الأبواب كلها موصَدَة هناك فى وجه الإسلام ، ظهرت يثربُ على الأفق الشمالى البعيد ، تجذب إليها مُتَّجه الأحداث من دائرته المقفلة فى أم القرى :

لقى المصطفى فى (العقبة) نفراً من اليثربيين الخزرج ، دعاهم إلى الإسلام فأجابوه ، وقالوا :

« إنا قد تركنا قومَنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك . فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه ، فلا رجلَ أعزُّ منك » .

ثم أخذوا طريقهم إلى الشمال عائدين إلى بلادهم ، ومعهم صحابى جليل من صميم قريش ، هو « مصعب بن عمير بن هاشم » موفداً من قِبَلِ المصطفى عليه الصلاة والسلام ، ليقرئهم القرآن ويفقههم فى الدين .

ونزل مصعب على أنصارى من الخزرجيين أصحاب بيعة العقبة الأولى : « أسعد ابن زرارة » كبير بنى النجار ، أخوال أبى محمد ، عبد الله بن عبد المطلب .

فحدث أن خرج مصعب يوماً مع ابن زرارة ، إلى حىّ بنى عبد الأشهل ، واجتمع إليهما رجال من الأنصار ، فسمع بمقدمهما « سعد بن معاذ ، وأسيد بن حضير » وهما يومئذ سيدا قومهما ، وكلاهما على دين آبائه .

وتحرج سعد بن معاذ من مواجهة أسعد بن زرارة ، وهو ابن خالته . فحرَّض أسيدَ ابن حضير على أن يقوم فيردَّه وصاحبَه عن الحى .

التقط ابن حضير حربته ، ثم أقبل إليهما فقال متوعداً :

« ما جاء بكما إلينا تسفِّهان ضعفاءنا ؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة » .

قال مصعب بن عمير : أو تجلس فتسمع ، فإن رضيتَ أمراً قبلتَه ، وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكره !

فركَّز « أسيد » حربته وجلس متكئاً عليها ، يسمع ما يقول مصعب عن الإسلام ، وما يتلو من القرآن .

ثم قال وقد زايله تقبُّضُه وتجهمه : ما أحسن هذا الكلام ؟

وأسلم . وانطلق عائداً إلى حيث ترك « سعدَ بن معاذ » فى جمع من قومه ، فعرف سعد أنه جاء بغير الوجه الذى ذهب به .

وسأله عما فعل بالرجلين ، مصعب وأسعد ، فقال : كلمتهما فواللهِ ما رأيت بهما بأساً ، وقد نهيتهما ، وإنى لأخشى على ابن خالتك من بعض القوم .

فقام سعد مغضباً ، فما أبعد حتى رأى الرجلين يتجهان إليه فى طمأنينة ، وعرف أن أسيد بن حضير ، إنما أراد له أن يسمع منهما .

وتجاهل مصعباً ، وقال لأسعد ، ابن خالته :

– يا أبا أمامة ، أما والله لولا ما بينى وبينك من قرابة ، مارُمتَ هذا منى . أتغشانا فى ديارنا بما نكره ؟

فترك أسعد الكلمة لمصعب الذى قال :

« أو تقعد فتسمع ، فإن رضيت أمراً ورغبتَ فيه قبلتَه ، وإن كرهتَه عزلنا عنك ما تكره ؟ » .

قال ابن معاذ : أنصفتَ

وتكلم مصعب ، وقرأ القرآن .

وقبل أن يلفظ سعد بن معاذ بكلمة ، عرف القوم الإسلام فى وجهه ، لإشراقه وتهلله .

وعاد إلى قومه فدعاهم إلى الإسلام فأجابوا جميعاً « فما أمسى فى حىٍّ بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة ، إلا مسلماً ومسلمة » .

* * *

فى الموسم التالى كانت بيعة العقبة الكبرى التى شهدها ثلاثة وسبعون رجلا من الأوس والخزرج ، وامرأتان أم عمارة نسيبة بنت كعب ، وأم منيع أسماء بنت عمرو بن عدى . وعادوا إلى المدينة والإسلام معهم ، قد بدأ ببيعة العقبة الكبرى مرحلة جديدة مؤذنة بتحول حاسم فى اتجاه الأحداث .

فبعدها بسنة واحدة ، كانت الهجرة التاريخية التى اختارها ثانى الخلفاء الراشدين « عمر ابن الخطاب » بداية للتاريخ الإسلامى .

تقديراً لجلال الحدث الذى كان منطلَق تحول حاسم وخطير فى تاريخ الإسلام .

* * *

ونطوف بمعالم المدينة وضواحيها ، والتاريخ معنا دليل وشاهد :

هذه « قباء » منزل المهاجر عند وصوله من مكة ، وهذا مسجدها ، أول مسجد بنى فى الإسلام .

وهذه بدر ، تعيد ذكرى « يوم الفرقان » فى السنة الثانية للهجرة حيث كانت الجولة الأولى من الصدام المسلح بين الإسلام وطاغوت الوثنية . وفيها تحددت موازين القوى ، لا بين هؤلاء وهؤلاء فحسب ، بل فى كل صراع بين حق وباطل .

وذهبتْ بدر عبرة ومثلا :

القتال « يوم الفرقان » لم يكن بين قلةٍ وكثرة فحسب ، ولكنه كان بين كثرة يعوزها سلاح الإيمان ليس فيها من يقاتل إلا وهو يفكر فى حماية الجاه الموروث ويتقى الموت ، وقلة مؤمنة صابرة ليس فيها من يقاتل إلا جهاداً فى سبيل الله وغضباً لما انتهك من حرماته ، لا يبالى على أى جنب كان فى الله مصرعه .

« قَد كان لَكم آيةٌ فى فِئتين التقَتا فئةٌ تُقاتِل فى سَبيلِ الله وأخْرى كافرةٌ يَرونَهم مِثلَيهم رأىَ العَيْنِ ، والله يُؤيِّدُ بنصرِه من يشاءُ ، إن فى ذلك لَعبرة لأُولىِ الأبْصار » .

* * *

وهذا جبل أُحُد ، ما يزال حيث هو ، يروى حديث يومه المشهود ، ويعطى درسَه وعبرتَه :

فيه خرجت قريش بحدِّها وحديدها وأحابيشها ومَن والاها من بنى كنانة وأهل تهامة ، ثأراً لقتلاها فى بدر ، ورحضاً لعار الهزيمة . . .

ونزل الجيش الزاحف من مكة على شفير الوادى مقابلَ المدينة ، وخرج له المصطفى بجنده المهاجرين والأنصار .

والتحم الجيشان . وحين بدا النصر للمؤمنين لا شك فيه . وولت قريش الأدبار عن معسكرها وتركت لواءها مطروحاً تحت مواطئ أقدام المنتصرين ، تسرع رماة المسلمين ، فمالوا إلى معسكر قريش التى ولت الأدبار عنه ، فكشفوا ظهور المسلمين لخيل المشركين التى

لاحت لها الفرصة ، فكرَّت على المسلمين من حيث انكشفوا . .
وتغير وجه المعركة ، ليتعلم المسلمون الدرسَ . .

* * *

وهنا وهناك ، حيثما اتجهنا وأنى أقمنا ، كانت أطياف الكتائب الأولى من حزب الله ، تحفّ بنا وتجلو لبصيرتنا أروع مواقف البطولة ومشاهد الجهاد ، وتحيي فى نفوسنا الأمل الضائع ، وتذكرنا بأمجاد ماضينا الأغر الذى شهدنا التاريخ فيه نملى عليه فيكتب ونوجهه فيسير . .

* * *

وحان أوان الرحيل ، فودَّعنا الحبيب فى مثواه ، وكأنا نودعه يوم رحل عن دنيانا بعد أن أبلغ رسالته ، وترك للمؤمنين من بعده أن ينشروا الدين والحق فى الآفاق ، وأن يحملوا لواء القرآن إلى الأقطار من مشرق ومغرب . .

وكانت آيته ، ﷺ بعد أن أتم رسالته ، أن يجوز عليه المرض والموت ، كما جازت عليه أعراض البشرية وهمومها وعواطفها لكيلا يُفتَن به المسلمون فينسوا أنه بشر رسول ، كما فُتِن مَن قبلهم فاتخذوا نبيهم مع الله إلهاً :

« وَمَا مُحمدٌ إلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبلِه الرُّسُلُ أَفَئِنْ ماتَ أوْ قُتِلَ انقَلَبْتم على أَعْقابكُمْ ومَن يَنْقَلِبْ على عَقِبيهِ فلَن يَضُرَّ اللهَ شيئاً وسَيَجزِى اللهُ الشَّاكِرينَ » .

ودفنوه هناك ، حيث مات فى حجرة زوجه أم المؤمنين السيدة عائشة بنت أبى بكر .

دفنوا محمدَ بن عبد الله الهاشمى القرشى .

وعاش الرسول ﷺ ، خاتم النبيين الذى أرسله الله بالهدى ودين الحق ، فى ليلة القدر المباركة من شهر رمضان المبارك .

« سلامٌ هى حتى مَطلعِ الفَجْرِ »

المدينة المنورة :
٢٠ من ذى الحجة ١٣٩٢ هـ

عود على بدء

« إن هذِهِ أمّتكم أمّةً وَاحِدةً »

رحلتى هذه المرةَ . كانت للحج وزيارة الحبيب المصطفى ، وقد عقدت العزم على أن أقضيها فى النسك والعبادة والتأمل ، لا أخلطها بشيء من شواغل الدنيا إلا ما لا حيلة لى فيه من هموم راسخة فى أعماق النفس .

من ثم ، لم يكن لرحلتى أى برنامج خارج منطقة الحرمين . بل إنى عزمت كذلك على الاعتذار عما عسى أن أتلقاه من دعوات خاصة ، أو اجتماع بالزملاء الأدباء والكُتاب ، راجية أن أتوه عنهم فى ركب الحجاج المليون ، حيث لا يكاد أحدٌ يتميز من أحد ، ونحن فى زى الإحرام ومواكب العبادة .

وفاتنى أن الملتقى الإسلامى الكبير فى الموسم ، يحقق تعارفنا من حيث ندرى ولا ندرى . فتفتح قلبى للقاءِ إخوة وأصدقاء من أقطار المشرق والمغرب ، بعد أن شط بنا النوى فتباعدت الديار ونأى المزار . وآخرين منهم جمعتنا على البعد زمالة الفكر والوجدان ، وإن لم يسبق لنا تعارف ولقاء .

ثم كانت آية الموسم الجامع ، أن يلقى بعضنا بعضاً مع اختلاف الألسنة والأجناس ، فنتعارف بالقلوب وإن لم نتعارف بالأسماء . وتتصافح وجوهنا وإن لم تتصافح الأيدى . وتشدّ بعضنا إلى بعض رابطة العقيدة ، نعمة الله على هذه الأمة ، تتجلى فى ملتقاها عند القبلة الواحدة فى مهد النبوة ومنزل الوحى .

ومن حيث رجوت أن أتقى مخالطة الناس . صرت أسعى إليهم تلقائياً مستجيبة إلى جاذبية الملتقى ، ومدركة ما غاب عنى من حكمة الحج فى تعارفنا وترسيخ شعورنا بوحدة الانتماء إلى أمة القرآن . .

* * *

ولما دنا الرحيل ، رحبت بدعوة لزيارة جامعة الملك عبد العزيز بجدة ، لأشهد المدى الذى وصل إليه جهاده فى مقاومة التخلّف والجهل والجمود ، وأرى ماذا آتى غرسُه من طيب الثمرات .

وكنت أتابع من بعيد ، كتائب الشباب وهى تخرج من أعماق البادية فتقتحم الأسوار إلى آفاق العلم والمعرفة لكنى ما توقعت أن يشهد جيلى ، خروج بنات الجزيرة من متاهة الجهل المفروضة عليهن باسم الدين ، إلى رحاب الجامعة . ولم أكن نسيت السدود الصماء التى رأيتها مضروبة على (حريم الجزيرة) تتحدى أى محاولة لإخراجهن إلى دور العلم . وقد سألت فى رحلتى الأولى : فيم هذا التعطيل لعقل المرأة المسلمة والوأد لوعيها ، والعلمُ فى ديننا فريضة على كل مسلم ومسلمة ؟

فكان الرد : يخشى المشايخ أن يكون تعليمها ذريعة فساد خلق .

ولما لم أفهم كيف يمكن أن يكون العلم مفسدة ، قيل لى فيما قيل ؛ إن البنت إذا تعلمت القراءة والكتابة ، لم يؤمَن أن تتسلل إليها ومنها رسائل غرامية ، فتنساق إلى الغواية والإغواء !

يومها لم أملك إلا أن أقول : لقد قرأنا وكتبنا ، وإن إحدانا لتملك من أمرها ، ما لا يملكه الحراس الأشداء . عِفتها كانت وستظل أبداً ملكَ يديها ، لاتُفرض عليها من خارج . وهى فى الإسلام مكلفة كالرجل سواء بسواء ، تحمل وحدها أمانة إنسانيتها وتبعة كسبها ومسئولية عملها . وقد « ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأةَ نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النارَ مع الداخلين » وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت ربّ ابنِ لى عندك بيتاً فى الجنة ونجِّنى من فرعون وعمله ونجِّنى من القوم الظالمين » ومريمَ ابنةَ عمران التى أحصنت فَرْجَها فنفخنا فيه من روحِنا وصدقتْ بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين » .

وكان أخشى ما أخشاه ، وأنا أرى بنات الجزيرة معطلات العقل موءودات الوعى ، أن يُظن بالإسلام أنه يريد للمرأة أن تُمسخ آدميتها فتهبط إلى دونية الدواب العجماء ، وإنى لأعلم أنه الذى حرر عقولنا وضمائرنا ، وأن الله سبحانه ، مَنَّ علينا بأن بعث فينا نبينا عليه الصلاة والسلام يعلمنا الكتاب والحكمة . فإذا أفتى مشايخ نجد بأن تعليم البنت مفسدة ينبغى أن تُتقى سدًّا للذرائع ، والدنيا تعرف لهؤلاء المشايخ فقههم للإسلام وجهادهم فى مقاومة البدع وتنقية العقيدة من الشوائب ، فإن الناسَ يُعذرون إذا ظنوا بالإسلام الظنون ، وحسبوا أنه يفرض على المرأة أن تعيش دُمية صماء بكماء عمياء البصر والبصيرة .

ومعاذ الله أن نكون هكذا ، ونحن نتلو من آياته المحكمات .

« إن شرَّ الدواب عند الله الصم البكمُ الذين لا يعقلون » . .

وتركتُ الجزيرة ، من عشرين سنة ، وليس فيها مدرسة واحدة لتعليم البنات . . المدنية العصرية غزت بيوت نجد والأحساء ، فسمحت (للضوء ، والسينما والراديو) بدخول أجنحة الحريم .

ولم تسمح بدخول كتاب !

ومضى جيل واحد فحسب ، فُتحت فيه أبواب العلم الموصدة فى وجوه البنات ، فاجتزن المراحل إلى التعليم العالى . وهؤلاء هن فى (جامعة الملك عبد العزيز بجدة) ، يوشكن أن يتممن مرحلة الليسانس ، ويحققن ما لم يجرؤ عهد العاهل الراحل على الخوض فيه ، فتركه أمانة لعهد ابنه الملك فيصل ، الذى جعل لتعليم البنات فى المملكة ، رياسة خاصة تعوض ما فات ، وتصل ما انقطع من ماضى هذه الأمة ، يومَ كانت المرأة تشارك فى صنع تاريخها مشاركة ذات بال ، وتفرض وجودها الفعال المؤثر ، على حياة قومها فى الجاهلية والإسلام .

وفى أنحاء الجزيرة ، باديتها والحضر ، تقوم مدارس البنات منارات هدى ، وتستقبل فى كل عام مع أفواج الطالبات ، فوجاً من معاهد المعلمات يحملن أمانة القيادة الصعبة على الدرب الخطر ما بين متاهة الجهل ورحاب المعرفة . فأذكر بهن تلميذات مدرسة النبوة من الصحابيات والتابعيات ، وأجيالا بعدهن من المسلمات ، بلغن مرتبة المشيخة فى علوم العربية والإسلام ، وإليهن كانت رحلة طلاب العلم فى عصور عز المسلمين . . .

وسلام على من اتبع الهدى . . .

جدة :

١٥ من ذى الحجة ١٣٩٢ هـ .

من وحي الملتقى

«وأذانٌ مِن اللهِ وَرَسُولِه إلى النَّاسِ يومَ الحجِّ
الأكبرِ»

من ذُرَا عرفات ، إلى سفح المكبَّر

فى طريق إلى المسجد الحرام ، ذكرت المسجد الأقصى فى محنته ، وقد بعُد عهده بوفود الحجاج ، وحطَّ عليه الشيطان يريد ليجعل منه معبداً للطاغوت . فتجسمت المفارقة بين المسجدين ، ضُرِب بينهما بسورٍ باطنُه فيه الرحمة ، وظاهرُه من قِبلَه العذابُ .

وفى مسمعى نداء عاهل الجزيرة « خادم الحرمين » يؤذّن فى وفود الموسم بالجهاد ويذكر المسلمين بعار إسرائيل ، ويستنفزهم لمعركة الشرف والبقاء ،

فهل يبلغ الأذان من المسجد الحرام مسمعاً من أمةٍ تولى وجهَها شطره حيث تكون ؟

* * *

من فجاج الأرض حَجُّوا عابدينْ
وعلى عرفات قاموا خاشعين
قد تناسَوا ما على أرض البشرْ
من هموم وعداوات وشر
وتماحت بينهم كل الفروقْ
فى حمى الكعبة والبيت العتيق
والتقت هامُ الرعايا والملوكْ
للذى تعنو له كلُّ الجباه
وإليه ، فى سماوات عُلاه
رفعوا النجوى دعاءً وصلاه
« ربنا لبيك إن الحمد لكْ »

* * *

(١)

خشع الكون لمرأى المؤمنين
مذ أهلوا فى خشوع مُحرِمين
عيدُهم حج وسعى وفداء
وأمانى عمرِهم هذا اللقاء
لِيُلبوا ضارعين قانتين
وحدَك اللهم ياخالق نعبدْ
وعلى نورِك ياربِّ محمد
كلٌّ مسعانا لدُنيا أو لدينْ

(٢)

وعلى سفح المكبِّرْ
عند أولى القبلتين ،
ثالث الأقداس صنو الحرمين
فى جوارِ المهدِ من أرض السلام
نشر الشيطان طاغوت الظلام
ومضى يعوى ويزأر . . .

* * *

وتوارى القدس فى جوف الدجَى
بائس الأطلال محجوبَ السنى
يسأل الأنقاض : « أين الموعدُ ؟
لِيُطلَّ الفجر من ذاك الضباب
أين مسرانا وأين المعبدُ ؟ »
ثم لاردَّ ، سوى رجع الصدى
وعواءِ الوحش من مرعى الذئاب

* * *

وعلى المهد المسهَدْ
غصنُ زيتون يتيم
وبقايا من هشيم
وصدى صوت بعيد يتردد
من ذُرا عرفات إلى سفح المكبّر :
« وحدك اللهم نعبد . . »
وعلى مسرى محمد ،
بجوار المهد من أرض السلام
ينشر الشيطان طاغوت الظلام ،
ويعربد . .

أغنية للعيد

«إلى أمتى ، فى لياليها الساهرة !» .

(١)

عيدُنا كان على طول المدى
يملأ الأفْق بهاءً وسنى
كلما هلَّ احتشدنا للقائهْ
ونهلنا الأنسَ من فيض عطائه
وشدَوْنا ، والدنَى تصغى لنا :
« ربنا لبيك إن الحمد لك »

* * *

الملايينُ على مرّ الزمنْ
من حجاز وعراق ويَمَنْ
من ضفاف النيل حتى الأطلسِ
من رُبا الشام وبيتِ المقدسِ
كم رآها العيد فى يوم مِنى
تلتقى روحاً وقلباً ومُنى
بهتاف العيد يعلو فى الفضاء
ربنا لبيك يانور السماء

(٢)

عيدنا اليوم وجوم وغضبْ
يرفض الصبر ويجفوه الطربْ
جُرحُنا ينزف من جرح الحِمَى
فيرد الشهدَ مُرًّا علقما

عُصبةُ السفاحين أعداء البشرْ
دنَّست أرض الرسالات الكُبَر
شوهتْ وجه الحياة
مسخت كلَّ القيَمْ
واستباحت حرمة الإنسانِ
فى قُدس الحرمْ

* * *

عيدُنا ثأرُ ألوف الشهداء
وملايين الضحايا الأبرياء
ومآسى اللاجئين الغرباء
وبطولات الجنود الشرفاء
وهتاف بدعاء المصطفى
يوم عيد النصر فى أم القرى :
ربنا لبيك إن الحمد لك .

* * *

وهو ذكرى من مضى
من أحبابنا ،
وحديث الغد عنا ،
لبنينا بعدنا
لن يقولوا إننا كنا هنا
قد لهونا أو نسينا ما بنا
لن يقولوا إننا نمنا على ضيم بنا ،
نتسلى بِحكايا ، من هنا أو من هنا
وفكاهات ألِفْنا مضغَها
نبعد الهمَّ بها عن بالنا
لن يقولوا إننا فى أعيادنا

قد غفونا لحظة عن مأساتنا
وكأنا لا نعى أبعادها ،
وكأنا لا نرى آمادها

* * *

عيدُنا ثأْرُ ألوف الشهداءْ
وملايين الضحايا الأبرياء
ومآسى اللاجئين الغرباء
وبطولات الجنود الشرفاء
وهتاف بدعاء المصطفى
يوم عيد النصر فى أم القرى :
ربنا لبيك إن الحمد لك

من جنود الجبهة ، إلى حجاج الموسم

فى طواف الوداع ، صبحَ يوم الرحيل ، بدأت أحس ثقل الهموم التى تخففت منها منذ حللتُ بالحمى الآمن . وذكرتُ كتائب المرابطين من شباب الأمة ، على خطوط وقف القتال ، يقضون عيدهم ، كما قضوا أعياداً قبله ، فى انتظار معركة الشرف والوجود والمصير .

فكأنى سمعتهم ، فى رؤياى ، يُفضون إلينا بنجوى أرواحهم الظامئة إلى الفداء :

* * *

أهلَنا الحجاجَ من شرق ومغربْ

ياضيوف الله فى أم القرى ،

وضيوف المصطفَى فى روض يثربْ ،

سلَّم اللهُ عليكم ،

وهنيئاً عيدُكم ،

فى حمى البيت الحرام .

* * *

أهلنا . نحن أيضاً كم وددْنا .

أننا كنا هناك ،

محرمين ، طائفين عابدين

نجتلى نورَ الحرمْ ،

نرتوى من نبع زمزمْ

ثم نسعى زائرين ،

مرهَفى الشوق إلى مثوى الحبيب

صلوات الله عليه والسلام

* * *

أهلَنا ،
هذه الرحلةُ كانت ،
فى الصبا ملءَ رؤانا
قبل أن نبلغ تكليف العقيده
قبل أن ندرك مغزاها فريضه
فى صبانا ، كم شجانا كلُّ موسم
موكبُ الحجاج من أهلٍ وجيره
ومراسيمُ الوداع ،
وحشودُ الضارعين ،
يسألون الركب فى يوم الرحيل :
اذكرونا فى مِنى ،
وعلى عرفات لا تنسوا الدعاءْ
واذكرونا فى الحرمْ
واحملوا منا السلام
للحبيب المصطفى خير الأنام

* * *

وبَقِينا فى انتظارْ ،
كلما قلنا متى نذهب صُحبَه ؟
قيل : صبراً ، أنتمُ الآن صغار
وسيأتى دورُكم ، حقق الله مناكُم .

* * *

أهلنا ،
فى صبانا كم خرجنا ،
من قرانا والبنادرْ
عندما تأتى البشائر .
للقاء العائدين ،
بالدفوف والطبول

والمشاعل والمجامر .
وملأنا الجو شدواً
بأغاريد الفرح ،
وتحيات الوصول .
وسهرنا الليل نصغى ،
بالقلوب والعقول ،
لحديثِ الحاج عن أنس القبول ،
والمشاهد والمواقف ،
والمناسك والشعائر
وازدحمنا حوله نبغى القِرى ،
من هدايا وكنوز وذخائر :
لمحةً من نور مكه ،
جرعةً من ماء زمزم
نفحة من عِطر طيبة
تمرة من نخلِ يثرب
ونقول الله أكبر ،
ياهناه ، حقق الله مُناه !
والحبيب قد دعاه ،
فمتى ننمو ونكبر؟

* * *

رحلة كانت لنا ،
حلم الصبا وعدَ الشباب ،
قبل مأساة الهزيمة
وكبرنا ، فعرفناها عقيده
عبأتنا للجهاد ديناً وعباده
حشدتنا هاهنا خمس سنين

فى انتظار المعركهْ
وأمانينا فداء وقتال وشهاده

* * *

فاذكرُونا أهلَنا ،
نحن جند الله جيل المعركه
اذكرونا فى مِنى ،
وعلى عرفات لا تنسوا الدعاء
بلغوا عنى الحبيبْ ،
أننا نرعى حماه ،
ونؤدى فرضَنا ،
وعلى وعدِ اللقاء ،
فى رحاب الخلد مثوى الشهداء
قد نذرنا هدينا ،
عندما يأتى الأوان ،
يوم عيد نحرنا ،
وسلاماً أهلنا حجاجَ مكه
ياضيوف الله فى البيت الحرام
وضيوف المصطفى خير الأنام

فهل قد بلغت الرسالة ؟
أرجو وآمل . .

عرفات :
٩ من ذى الحجة ١٣٩٢ هـ

الفهرست

الصفحة

دار المعارف

تقدم من مؤلفات الدكتورة بنت الشاطئ

في الدراسات القرآنية والإسلامية :

التفسير البيانى للقرآن الكريم (فى جزأين)

مقال فى الإنسان : دراسة قرآنية

الإعجاز البيانى للقرآن ، ومسائل ابن الأزرق

القرآن والتفسير العصرى

مع المصطفى ، فى عصر المبعث

نساء النبي عليه الصلاة والسلام

وفى الدراسات الأدبية :

رسالة الغفران : نص محقق (طبعة الذخائر)

الغفران : دراسة نقدية

قيم جديدة للأدب العربى ، القديم والمعاصر ١ ، ٢

لغتنا والحياة

تراثنا ، بين ماض وحاضر

الخنساء

أرض المعجزات

هذا الكتاب تحدثنا فيه الدكتورة بنت الشاطئ عن جولة واسعة المدى فى تلك الأرض الحبيبة إلى كل قلب ، الجديرة بكل إعجاب ؛ لأنها أرض المعجزات ، التى قدّر لها منذ أربعة عشر قرنًا أن تغير بالإسلام تاريخ العالم ، وتقرر مصاير دول وشعوب وحضارات وديانات .

وهذه الأرض ذات المنابع الروحية المقدسة تشارك اليوم فى دنيا المادة كما تشارك فى دنيا الروح ، وتدفع سيل الزيت دافقًا غزيرًا ، فتسهم بذلك فى تقرير مصير العالم . فهى أرض دين ودنيا جديرة بأن نجول فى جنباتها ونقرأ ماكتب الرحالون عنها ، وما شاهده الجوالون فى نواحيها المختلفة .